روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

ثقافة الغد .. لشباب اليوم

الدمّ

وقصص أخرى

31

د. نبيل فاروق

Looloo
www.dvd4arab.com

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

- مع بدء العـد التنـازلى ، نحو القـرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيـل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضـارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليوم

د. نبيل فاروق

سنة واحدة

[قصة قصيرة]

ترقرقت الدموع فى عينيى (غادة) ، وارتجفت تلك الابتسامة الحانية الدافئة على شفتيها ، وهى تثبّت تلك الصورة الكبيرة ، فى منتصف أفضل جدار فى المنزل كله ، ثم تتراجع لتلقى عليها نظرة طويلة ، قبل أن تنطلق من أعمق أعماق صدرها آهة حارة ، وهى تتمتم :

ـ حمدًا لله ..

كانت الصورة تضمّ (وائل) و(ولاء) ، ابنى زوجها (خالد) ، فى حفل تخرّجهما فى الجامعة الأمريكية ، والفرحة تغمر كل لمحة من ملامحهما بلا استثناء .

وانسابت دموعها على خديها ، وهى تستعيد ذكريات بعيدة ..

كم تمنى (خالد) أن يرى هذا اليوم ..

كم حلم بمشاهدة توءميه ، وهما يحصلان على شهادة التخرُّج ، بعد أن أصبحا شابين يافعين جميلين ..

كم فعل ..

وارتجفت شفتاها مرة أخرى مع تذكُّرها لتلك اللحظة الحزينة من حياته ..

اللحظة التى علم فيها أن تحقيق حلمه مستحيل !

وأنه لن يحيا ليرى ذلك اليوم ..

أبدًا ..

كان هذا منذ عشرين عامًا تقريبًا ، قبل أن يبلغ التوءمان عامهما الأوَّل بشهر واحد ، عندما شعر (خالد) ببعض الألم فى جانبه الأيمن ، فذهب لزيارة الطبيب ، مع زوجته (سهام) ، التى أبدت اهتمامًا وقلقًا شديدين بالأمر ، على الرغم من سخريته من مخاوفها وقلقها ..

ولكن الطبيب شاركها القلق نفسه ، بعد أن قام بالكشف عليه ، بمنتهى الاهتمام والدقة ، ثم قال :

ـ أظننا بحاجة إلى بعض الفحوصات وصور الأشعة .

لم يبال (خالد) يومها كثيرًا ، على الرغم من دموع (سهام) وجزعها ، وقضى ليلته يداعب طفليه ، اللذين لم يحبَّ فى عمره كله أكثر منهما ، ونام وهو يحتضنهما معًا ، وكأنما يبثهما حبه ودفأه وحناته ، ويحلم بمستقبلهما ونجاحهما ..

وفى اليوم التالى ، وتحت إلحاح (سهام) ، ذهب (خالد) لعمل الفحوصات المطلوبة ..

وجاءت النتائج مفاجئة ..

ومفزعة ..

ورم خبيث فى الكبد ..

وهوى قلب (خالد) بين قدميه ، وهو يحمل الأوراق كلها إلى الطبيب ، الذى راجعها فى أسف وأكَّد تشخيص وتقرير المعامل ، وربَّت على كتفه ، قائلاً فى حزن :

ـ إنها إرادة اللَّه (سبحانه وتعالى) يا ولدى .

غمغم (خالد) ، ذاهلاً منهارًا :

ـ وماذا عن طفلىَّ ؟! من سيربيهما ويرعاهما من بعدى ؟!

ربَّت الطبيب على كتفه مرة أخرى ، قائلاً :

ـ اللَّه يرعاهما دومًا يا ولدى .. ثم إن أمهما ما زالت شابة .. أليس كذلك ؟!

سأله (خالد) بصوت مرتجف :

ـ كم بقى لى من العمر ؟!

أشاح الطبيب بوجهه ، مغمغمًا :

ـ الأعمار بيد اللّه يا ولدى .

كرَّر (خالد) فى عصبية :

ـ كم يا دكتور ؟!

صمت الطبيب بضع لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ سنة واحدة على الأكثر .

غادر (خالد) المكان بعينيـن زائغتين ، وقلب تبكى خفقاتـه بدموع من دم ، ورأس لا يحمل سوى كلمة واحدة ، تنفطر لهـا كل القلوب ..

الطفلان ..

ما مصيرهما من بعده ؟!

لم يستطع العودة إلى منزله مباشرة ، خشية أن تقرأ (سـهام) النتائج فى ملامحه وشحوبه ، فقضى ثلاث ساعات فى مكان هادئ ، يرتب فيه أفكاره ، ويستعيد إيمانه باللّه (سبحانه وتعالى) ..

أمامه سنة واحدة ..

هكذا قرَّر الطب والعلم ..

ولكن من أدراه أنه كان سيحيا لحظة واحدة بعد هذا ، لـو لـم يصب بالمرض ؟!

الأعمار بيد اللّه (سبحانه وتعالى) وحده ..

هو يمنحها لنا ، وهو (سبحانه) يحدّد متى ينتزعها منا ..

كل شخص فى الوجود يمكن أن يموت الآن ..

فى لحظة واحدة ..

ودون أية أمراض أو متاعب ..

بل كل مخلوق ..

فلماذا يقلق نفسه بالأمر إذن ؟!

فليعش حياته ، ويرى طفليه ، ويمنحهمـا كل حبـه ورعايتـه وحنانه ..

حتى تحين اللحظة ..

هذا ما ينبغى أن يفعله ..

وما ينبغى أن يحتفظ به سرًا فى أعماقه ..

وعندما عاد إلى منزله ، كان باسمًا ، هاشًا ، وكأنما نسى كل شىء عن مصيره المرتقب ، حتى إنه استطاع بسهولة إقناع (سهام) بأن الفحوصات قد أثبتت أن كل شىء على ما يرام ، وأن ما يعانيه لم يكن سوى بعض الإجهاد فحسب .

وعادت الدنيا تسير فى إطارها الطبيعى ، مع استثناء واحد ..

لقد زاد تعلُّق (خالد) بطفليه ، وراح يمنحهما المزيد والمزيد من الحب والدفء والحنان ، كما زاد اهتمامه بزوجته (سهام) ، وأخذ ينقل كل مدخراته باسمها ، و ..

ولكن فجأة ، سدَّد إليه القدر ضربة عنيفة ..

ماتت (سهام) ..

ماتت فجأة ، بأزمة قلبية ، باغتتها بعد يوم عمل شاق ، على الرغم من أنها لم تشك أبدًا من أية متاعب صحية من قبل ..

وجنّ جنون (خالد) ..

لقد احتمل طوال الوقت فكرة موته ، معتمدًا على أنه سيترك طفليه لأمهما ، التى ستحسن حتمًا رعايتهما وتربيتهما ، وستمنحهما كل الحب والحنان ..

وها هى ذى زوجته ترحل قبله ..

وبسبعة أشهر كاملة ..

الكل تصوَّر أن ذلك الحزن الشديد ، الذى سيطر على كيانه كله ، يعود إلى فقده لزوجته ، التى ارتبط بها فى ريعان شبابهما ، بعد قصة حب طويلة ..

وكانوا على حق فى هذا إلى حد كبير ؛ فكل حبه لزوجته قد تحوَّل إلى موجة من الحزن العارم ..

ولكن خوفه على طفليه ، وهلعه من مصيرهما المنتظر ، بعد فقدان أبويهما ، كان يحوِّل هذا الحزن إلى بركان من الألم والمرارة ، تتدفَّق حممه فى كل ذرة من كيانه ..

ماذا سيفعل الطفلان الآن ؟!

كيف سيواجهان الدنيا ، دون أبوين ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

المأساة الحقيقية هى أنه و (سهام) كانا كفرعى شجرة مقطوعين ، كما تقول الأمثال العامية ..

هو وهى فقدا أبويهما فى طفولتهما ، وعاشا يتيمين طيلة عمرهما ..

وكلاهما عانى الكثير فى طفولته وشبابه ..

وها هما ذان ولداه يعانيان المأساة نفسها ، التى تمنى من أعمق أعماق قلبه ألاّ يرياها أبدًا ..

وهو مستعد لفعل أى شىء فى الدنيا ، حتى لا يحدث هذا .. أى شىء ..

ولكن عقله ظلّ عاجزًا عن التفكير فى أى حل منطقى ..

حتى ظهرت (غادة) فى حياته ..

جارة شابة لهما ، لم يكن يشعر بوجودها من قبل قط ، ولكنها بدأت تظهر فى حياته بوضوح ، منذ وفاة (سهام) لترعى الصغيرين فى غيابه ، وتطعمهما ، أو تحملهما إلى

حضانة الأطفال المجاورة ، وتعيدهما فى نهاية اليوم إليه ، نظيفين باسمين ، عند عودته من عمله ..

ولدهشته ، كانت (غادة) تعامل الطفلين بحب جارف ، وتغمرهما بحنان لم ير مثله قط ، حتى من زوجته (سهام) ، أمهما الحقيقية ..

ولم يستطع هو فهم هذا أبدًا ..

حتى عرف قصة (غادة) ..

لقد تزوّجت مرة واحدة ، منذ عامين ، وتم طلاقها بعد عام واحد ، لأنها ليست لديها القدرة على الإنجاب مطلقًا ..

لهذا هى شديدة التعلُّق بالطفلين ، اللذين يمنحانها شعورًا بالأمومة ، لن يمكنها الحصول عليه على نحو طبيعى أبدًا ..

وهنا قفزت الفكرة إلى رأسه ..

وفى اليوم التالى ، وبعد مرور شهرين فحسب على موت (سهام) ، تقدَّم يطلب يد (غادة) للزواج ..

ولقد أدهش هذا (غادة) بشدة ..

بل أدهش الكل ..

وأفزعهم ..

كيف يمكن أن يفكِّر فى الزواج بهذه السرعة ؟!

هل نسى زوجته ، وحبهما الجارف ، الذى تحدَّث عنه الكل ؟!

أم أنه يبحث عمن يرعى طفليه فحسب ؟!

ولكن (خالد) لم يبال قط بما قاله الكل ..

كل ما فعله ، هو أن صارح (غادة) بالموقف كله ..

وبكل التفاصيل ..

صارحها بأمر مرضه ، وأيام عمره المعدودة ، واحتياجه الشديد إلى وجودها ، من أجل طفليه ..

ومن أجله أيضًا ..

وكانت المفاجأة فى انتظاره ..

لقد بكت (غادة) بكاءً حارًا على صدره ، وهى تصارحه بدورها بأنها تحبه ، من أعمق أعماق قلبها ، وبأنها كانت تخفى ذلك الحب فى قلبها طيلة الوقت ، حرصًا على بيته وزواجه وحياته وطفليه ..

وبكل حبها ، أخبرته (غادة) أنها توافق على الزواج منه ، حتى ولو اقتصرت مدة زواجهما على أسبوع واحد ، وأن كل ما تتمناه هو أن يمكنها إسعاده بأقصى ما تستطيع ، ومنحه وطفليه كل حبها وحناتها ودفئها ..

بل كل ما بكيانها ..

وبسرعة أثارت دهشة واستنكار الكل ، تزوّجا ..

وكانت (غادة) صادقة فى كل ما وعدته به ..

لقد منحته ومنحت طفليه كل حناتها ، وحبها ، ودفء قلبها الكبير ..

ولم يكن (خالد) منافقًا أو مبالغًا ، عندما قال : إنه قد قضى معها أجمل وأسعد أيام حياته ..

هذا ما تذكّرته (غادة) ، وهى تتطلّع إلى صورة حفل تخرُّج (وائل) و (ولاء) ، ودموعها ما زالت تغرق وجهها ، وهى تغمغم :

ـ أخيرًا تحقّق حلمك ، وتخرّجا يا (خالد) .

احتضنها (خالد) بكل حب الدنيا ، وطبع قبلة على خدها ، وهو يقول :

ـ من يصدّق أننى عشت لأرى هذا اليوم ؟!

أراحت رأسها على صدره فى حب ، مغمغمة :

ـ أطال اللّه فى عمرك ، يا أحب الناس .

ابتسم ، وهو يضمّها إليه فى دفء ، قائلاً :

ـ الأعمار بيد اللّه يا حبيبتى .. منذ عشرين عامًا ، تصوّر الطب أننى لن أحيا سوى عام واحد ، ولكن إرادة اللّه (سبحانه وتعالى) ،

والحب الـذى غمـرت كيـانى بـه ، حققـا المعجـزة ، وهـأنذا حى أرزق ، بعد أن مات كل الأطباء ، الذين قرَّروا ما تبقى لى مـن العمر يومًا .

وارتسمت على شفتيه ابتسـامة حانيـة محبـة ، وهـو يضمّهـا إلى صدره أكثر وأكثر ، ويتطلَّع إلى صورة حفل تخرُّج ولديـه ، مغمغمًا :

ـ لقد كانت معجزة حقيقية ، بكل المقاييس .

دفنت رأسها فى صدره أكثر ، وتركت دموعها تنساب عليه ، بكل فرحة وحب وسعادة الدنيا ، وهى تشاركه فى صمت إيمانـه بتلك المعجزة ..

معجزة الحب .

★ ★ ★

١ـ مهمـة خاصـة ..

تطلّع (هاشم همام) ، رجل الأمن الشـهير ، إلـى ذلـك المبنـى الصغير ، المحاط بحراسة قوية ، والذى يقف وحيدًا ، وسط تلـك المنطقة الهادئة الخضراء ، على مشارف العاصمة ، وهو يقترب منه بسيارته ، عبر طريق خاص ممهد ، يحظر المرور فيه لغير المتجهين إلى ذلك المبنى ، والحاملين لتراخيص خاصـة ، لايتم منحها إلا بعد تحريات واسعة طويلة ، وتعقيدات أمنية كثيرة ..

كـان يعلـم أن هـذا المبنى واحـد من عـدة مبـان ، تتبـع إدارة الأبحاث العسكرية فى دولته ، ولكنه يجهل تمامًـا سر استدعائه رسميًا إلى مثل هذا المكان ، الذى لايخضع للقوانين المدنية ..

وفـى هـدوء ، أوقـف (هاشـم) سـيارته أمـام بـاب المبنـى الرئيسى ، وأبرز هويته وتصريحه إلى حارسى البوابـة ، اللذين راجعا التصريح والهوية فى إمعان ، ثـم سـمحا لـه بدخـول المبنـى ، حيث استقبله حـارس ثـالث ، قـاده إلـى حجرة مديـر المبنـى ، الـذى مضـى يستقبله فـى ترحـاب ، وهـو يُصافحـه ، قائلاً :

ـ مرحبًا بك يا (هاشم) ، فى مركز الأبحاث العلمية العسكرية .

ثم اعتدل مبتسمًا ، وهو يستطرد :

ـ أتعلم أن الكمبيوتر قد انتخبك شخصيًا ، من بين ثلاثة آلاف رجل أمن ، فى المنطقة العربية كلها ؟

أومأ (هاشم) برأسه إيجابًا ، وقال فى حذر :

أعلم هذا يـا سيِّدى ، ولاشـك أن الاختيـار يشـرفنى ، ولكننـى أتساءل عن البيانات ، التى تم تزويـد الكمبيوتـر بهـا ، لينتخبنـى بالذات .

قال المدير فى هدوء :

ـ أتقصـد طبيعـة المهمـة ، التـى اخترنـاك لهـا ؟ لاتتعجَّـل يا (هاشم) .. اجلس وسأشرح لك كل شئ .

جلـس (هاشـم) علـى المقعد المقـابل لمكتـب المدير ، الـذى جلس بدوره وشبَّك أصابع كفيه أمام وجهه ، وبدا الاهتمام علـى ملامحه ، وهو يقول :

ـ الواقع أن بيننا خائنًا .

انعقد حاجبا (هاشم) فى شدة ، وهو يقول :

ـ خائن ؟ !

أومأ المدير برأسه إيجابًا ، وقال برنة أسف واضحة :

ـ أعلم أن هذا أمر يصعب تصديقه ، ولكنه التفسير الوحيد لكل ما يحدث هنا ، فمنذ ما يقرب من تسعة أشهر ، بدأ فريق من علمائنا فى دراسة وتطوير أشعة الليزر ، فى محاولة لاستنباط نوع متطوّر من الأشعة القاتلة ، يمكن تزويد الطائرات الحربية به ، وصنع مدافع مضادة للطائرات منه ، وما إلى ذلك ، وعندما بدأت هذه الدراسات تُبشر بالنجاح ، وقعت عدة حوادث عجيبة .

صمت المدير لحظة ، وكأنّما يلتقط أنفاسه ويستجمع أفكاره ، ثم استطرد :

ـ فى البداية جرت محاولة لسرقة تصميمات وجداول المشروع ، وفشلت المحاولة بسبب دقة أجهزة الإنذار ، ولكنها أشارت إلى وجود خائن بين أفراد المشروع ، وبعدها تحطّم موصّل صغير لدوائر السيليكون ، على نحو يوحى بأنه قد تحطّم بفعل فاعل ، ثم انفجرت أنبوبة من أنابيب الليزر دون مبرر .. باختصار ، لم يعد هناك شك فى وجود خائن ما يبذل أقصى جهده لمنعنا من تطوير هذا السلاح الجديد ، بعد أن فشل فى سرقة تصميماته .

سأله (هاشم) فى اهتمام :

ـ هل أجريتم تحقيقًا رسميًا فى هذا الشأن ؟

هز المدير رأسه نفيًا ، وقال :

لقد رفضت هذه الفكرة ، حتى لا أشيع الخوف فى نفوس العلماء ، المشرفين على المشروع وإلا أثر هذا فى صفاء عقولهم واهتمامهم البالغ بالعمل .

بدت علامات التفكير العميق على (هاشم) ، وهو يسأل :

ـ هل تم اختيار العلماء بدقة ؟

أجابه المدير :

ـ نعم ولكننى أستبعد كون الخائن هو أحد العلماء ، فكلهم يعرفون تصميمات المشروع ، ولن يحاول أحدهم سرقتها .

سأل (هاشم) :

ـ من يعمل بالمشروع إذن ، بخلاف العلماء ؟

تنهّد المدير ، وصمت لحظة ، ثم قال :

ـ طاقم الأمن .

عقد (هاشم) حاجبيه ، وهو يسأله :

ـ هل تشك فى طاقم الأمن ؟

أومأ المدير برأسه إيجابًا ، وقال فى صوت خافت :

ـ هذا هو الاحتمال الوحيد للأسف .

ثم مال نحو (هاشم) ، مستطردًا :

ـ ليس الطاقم كله بالطبع ، فالاتهام ينحصر حتمًا فى هؤلاء ، الذين يمكنهم بلوغ منطقة المشروع ، بحكم طبيعة منصبهم ، أو توزيعهم الأمنى ، وهؤلاء لا يزيد عددهم على ثلاثة .. (عمر) ، و (أيمن) ، و (جاد) ؛ فهم رؤساء طاقم الحراسة ، ويمكنهم دخول قاعة التجارب وحجرة العلماء ، فى أية لحظة ، بحجة التأكد من إجراءات الأمن والنظام .

سأله (هاشم) فى اهتمام بالغ :

ـ من منهم كان هنا ، عندما حدثت محاولة سرقة التصميمات ؟

ابتسم المدير وقال :

ـ لو أن الأمر بهذه البساطة لما احتجنا إلى معاونتك يا (هاشم) ، فلقد تم حادث السرقة ، فى وجود الثلاثة ، وكان كل منهم يملك دليلاً ينفى عنه تهمة محاولة السرقة .

ران الصمت لحظات داخل الحجرة ، ثم قال (هاشم) فى هدوء :

ـ هل تطلب منى التحقيق فى الأمر يا سيدى ؟

أجابه المدير فى سرعة :

ـ ليس بصورة رسمية .

ثم بلع ريقه ، واستطرد :

ـ لقد أعلنت أننا ننوى مراجعة وسائل الأمن ، بوساطة خبير أمنى شهير ، وذكرت اسمك يا (هاشم) .

رفع (هاشم) حاجبيه ، وعاد يخفضهما مبتسمًا ، وهو يقول :

ـ هل أصبحت خبيرًا فى وسائل الأمن ؟

أجابه المدير :

ـ أنت كذلك بالفعل ، وكل ما أرجوه أن تستخدم كل خبرتك هذه فى كشف أمر الخائن ، فمن يدرى ما الذى يمكن أن يفعله ، فى المحاولة القادمة ؟

نهض (هاشم) واقفًا ، وهو يقول :

ـ اطمئن يا سيِّدى .. لن يهدأ لى بال ، حتى يسقط هذا الخائن فى يد العدالة يا سيِّدى ، فهذه هى مهنتى ..

وابتسم مستطردًا :

ـ العدالة ..

★ ★ ★

أدرك (هاشم) ، منذ الوهلة الأولى ، أن مهمته لن تكون أبدًا بالمهمة السهلة أو الهينة ، فلقد استقبله رجال الأمن الثلاثة فى برود ، لا يخلو من وضوح عدم ارتياحهم لقدومه ، إذ بدا أنهم يعتبرون مهمته نوعًا من التدخل فى عملهم ، أو فرض الوصاية عليهم ، ولقد صارحه (جاد) بهذا ، وهو يقول :

ـ وما شأن الشرطة بالأمن العسكرى ؟ أتظن أمن المدنيين يُشبه أمن العسكريين ؟ !

أجابه (هاشم) فى برود مماثل :

ـ كلاهما أمن على أية حال .

اندفع (عمر) يقول :

ـ خطأ .. الأمن العسكرى أمر بالغ الخطورة ، قد يساوى الخطأ الواحد فيه أمن دولة كاملة ..

قال (هاشم) :

ـ هذا صحيح ، ولهذا السبب بالذات انتدبتنى إدارة الأبحاث العسكرية لفحص الأمن هنا .

ثم استطرد بسرعة ، قبل أن يصدر من أحدهم تعليق آخر :

ـ والآن من منكم سيرشدنى إلى قاعة الأبحاث ؟

أجابه (أيمن) فى برود عدائى :

ـ ولِمَ لاتذهب إليها وحدك ؟ إنها هناك ، فى نهاية هذا الممر .

ألقى (هاشم) نظرة على الممر ، ثم قال :

ـ لا بأس .. سأذهب إليها وحدى .

واتجه نحو الممر فى حزم ، دون أن يلتفت خلفه ، ودون أن يدرك أن أحد رجال الأمن الثلاثة كان يقول لنفسه سرًا :

ـ هراء يا (هاشم همام) .. إننى أعرف من أنت ، وأعرف لماذا أنت هنا .. وأعرف أيضا أن أيامك فى هذه الدنيا قد أصبحت معدودة .. معدودة للغاية ..

وقهقه شيطان الشر فى أعماقه ..

★ ★ ★

فحص (هاشم) قاعة البحث وحجرة العلماء فى دقة بالغة ، جعلته يؤمن فى النهاية بأنه من المستحيل أن يحاول شخص من الخارج سرقة التصميمات ، أو تحطيم جهاز الأشعة الجديد ، ومن المحتم أن يكون الخائن هو أحد أفراد طاقم الأمن الثلاثة ، كما قال مدير المركز ..

وبينما شرد (هاشم) مع أفكاره ، اقتحم خلوته صوت ساخر ، يقول :

ـ هل عثرت على دليل ؟

التفت (هاشم) فى حركة سريعة إلى مصدر الصوت ، ووقعت عيناه على (عمر) الذى يبتسم فى سخرية مستطردا :

ـ ألا توجد أية بصمات ؟

رمقه (هاشم) بنظرة باردة ، وهو يقول :

ـ وهل المفترض أن يوجد دليل وبصمات ؟

أطلق (عمر) ضحكة ساخرة قصيرة ، وقال :

ـ هل تتصوَّر أن مهمتك هنا سرية يا رجل الأمن ؟ لو أنك تتصوَّر هذا فأنت واهم .. كل مخلوق فى هذا المكان يُدرك جيدًا أنك هنا ، بسبب حوادث المشروع ..

سأله (هاشم) فى سخرية مماثلة :

ـ هل تعرَّض المشروع للحوادث ؟

انعقد حاجبا (عمر) فى غضب مفاجئ وهو يقول :

ـ هل تسخر منى ؟

ثم انتزع مسدسه فى حركة سريعة ، مستطردًا فى ثورة :

ـ إننى أكره من يسخر منى .

لم يدر (عمر) كيف تحرَّك (هاشم) بهذه السرعة ..

بل إنه لا يذكر حتى ما حدث بالضبط ..

لقد انتزع مسدسه من غمده ، وصوبَّه إلى (هاشم) ثم خُيِّل إليه أن (هاشم) قد اختفى من أمامه بغتة ، ثم ظهر على قيد خطوة واحدة منه ، وبعدها هوت على فكه صاعقة ، ألقته أرضًا ، وانتزعت منه مسدسه ، ثم نقلته كالساحر إلى يد (هاشم) ، الذى قال فى صرامة :

ـ وأنا أكره من يُصوِّب إلىَّ مسدسه .

لم ينبس (عمر) ببنت شفة ، وهو يُحدِّق فى المسدس فى ذهول ، ثم نقل عينيه إلى وجه (هاشم) الذى استطرد فى صرامة :

ـ خاصة إذا ما كانت محاولة للتخلص منى .

ندت من بين شفتى (عمر) حشرجة خشنة ، ميَّز (هاشم) عبرها كلمة تقول :

ـ هل جننت ؟

وفى بساطة ، ألقى (هاشم) المسدس إلى (عمر) وقال :

ـ لا .. لم أجن بعد ، وأرجو ألا تفعل أنت .

نهض (عمر) ينفض غبارًا وهميًا عن ثيابه ، وهو يقول فى عصبية :

ـ من المؤكّد أنك ستضعنى على رأس قائمة المشتبه فيهم ، بعدما حدث .

قال (هاشم) فى هدوء ، وهو يعقد ساعديه أمام صدره :

ـ ليس إذا ما أخبرتنى كل ما لديك حول هذه الحوادث الغامضة .

قلب (عمر) كفيه ، قائلاً :

ـ كل ما أعلمه لا يتجاوز ما أخبروك به حتمًا ، فلقد حدثت محاولة لسرقة التصميمات ، ثم حادثتان غامضتان لتدمير جهاز الأشعة الجديد ، وأظنهم يشكون فى وجود خائن بيننا .

غمغم (هاشم) :

ـ من الواضح أن السرية هنا تحتاج إلى إعادة تقييم .

ثم ارتفع صوته ، وهو يسأل :

ـ هل يعلم الجميع ما تعلمه ؟

هزّ (عمر) كتفيه ، وقال :

ـ بالطبع .

ثم أردف فى توتر :

ـ ما عدا علماء المشروع ، فنحن نُحيطهم بسياج من الأمن والكتمان ، حتى أصبحوا معزولين تقريبًا عن العالم الخارجى ، فحتى النافذة الوحيدة لقاعة البحث وحجرة العلماء لا تطل إلا على الحقول الممتدة إلى ما لانهاية ، وتنسدل فوقها طيلة الوقت تقريبًا ستارة سميكة لا ينجح الضوء فى التسلل منها ، والشىء الوحيد الذى يربطهم بالعالم الخارجى ، فى أثناء عملهم ، هو البرواز الزجاجى الصغير ، فى منتصف باب قاعة البحث ، وحتى هذا مصنوع من زجاج خاص ، يسمح لهم برؤية ما يحدث داخل القاعة ، فى حين يبدو كالمرآة من الجانب الآخر ، بحيث يعجز أى شخص فى الخارج عن رؤية عملهم فى الداخل .

مط (هاشم) شفتيه ، وقال :

ـ إنه أمر أشبه بالسجن .

أجابه (عمر) بإيماءة من رأسه ، وهو يقول :

ـ أوافقك القول .

ثم أعاد مسدسه إلى غمده ، واتجه نحو الباب ، مستطردا :

ـ سأتركك لتواصل عملك ، فقد هبط الظـلام ، والمفروض أن نبدأ الفحص الأمنى الروتينى ..

تركه (هاشم) ينصرف ، ثم غمغم :

ـ عجبا !! يبدو أنه لم يكن هناك داع لسرية مهمتى .

غادر المكان بدوره ، وسار عبر الممر الطويل فى بطء ، وهو يفكر فى الأمر ..

هل يمكن أن يكون (عمر) هو الخائن حقًا ؟

بدا له الاحتمال ممكننا ، وإن لم يكن حتميًا ، فلم يكن هناك دليل واحد يدين (عمر) حتى مع محاولته الاعتداء عليه ، فمن الممكن أن تكون عصبيته تجاهه بسبب عملهما فى مجال واحد ، وشعور (عمر) بأنه ينتزع منه تخصصه ..

فجأة انقطعت أفكاره مع انقطاع التيار الكهربى ، وغرق الممر فى ظلام دامس ، فتوقف (هاشم) فى مكانه ، وقال فى توتر :

ـ ترى أمصادفة هى ، أم .. ؟

قبل أن يتم تساؤله ، أتاه الجواب على هيئة صوت ..

صوت خافت ، يحمل وقع أقدام حذرة ..

هناك من يعبر الممر فى اتجاهه ..

وهناك من يضمر له الشر ..

وفى صرامة ، قال (هاشم) :

ـ من هناك ؟

صمت وقع الأقدام على الفور ، وإن شعر (هاشم) أن خصمه ما زال يقترب منه على أطراف أصابعه ، فأمسك مقبض مسدسه فى توتر ، وهو يقول :

ـ سألت من هناك ؟

أدار رأسه فى الظلام فى حذر ، وكأنما يحاول اختراق حجبه بعينه ، والتوتر يملأ نفسه ..

وفجأة شعر بجسد يتحرك إلى جواره ، فأستدار إليه هاتفا :

ـ سأطلق النار لو لم ..

لم يتم عبارته ..

لم يتمها ، لأنه تلقى فجأة ضربة قوية على مؤخرة عنقه ، فجرت فيضًا من الضوء الوهمى أمام عينيه ، قبل أن يسقط ، و ..

ويفقد الوعى ..

★ ★ ★

استعاد (هاشم) وعيه فى سرعة ، وشعر بصداع شديد يكتنف رأسه ، فحاول رفع يديه ليضعها على عنقه ، إلا أن يده

بدت ثقيلة ، تعجز عن الحركة ، مما أطار البقية الباقية من ذلك الضباب ، الذى يحيط بذهنه ، ففتح عينيه فى صعوبة ، وأدارهما إلى يده ، ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه فى توتر ، عندما اكتشف أنه مقيد المعصمين والقدمين ، فوق منضدة مستطيلة ، أشبه بمواند العمليات الجراحية ، فغمغم :

ـ ماذا يحدث هنا ؟

انتبه فجأة إلى ذلك الشعاع الضوئى ، الذى يسقط على طرف المنضدة ، على قيد سنتيمترات من عنقه ، على هيئة خيط من الطاقة الصافية ..

خيط قاتل ..

واتسعت عيناه عن آخرهما ، عندما أدرك طبيعة تلك الأشعة ، ومسارها المحتوم ..

لقد كان خيط الأشعة ساقطًا من جهاز أشعة الليزر المطور الجديد ، الذى يتحرك فى بطء ، لتبتر الأشعة طرف المنضدة تدريجيًا ، متجهة نحو هدف بشرىٍ حىّ ..

نحو عنقه ..

مباشرة .

★ ★ ★

٢ـ ثغرة أمن ..

انقبضت عضلات (هاشم) كلها فى شدة ، وهو يبذل أقصى قوته للتخلص من القيود ، التى تربطه إلى المنضدة ، دون جدوى ، واحتقن وجهه بالدماء ، وهو يتطلّع فى توتر إلى خيط الأشعة المدمِّر ، الذى راح يشق المنضدة فى بطء ، كما لو كان سكينًا حادًا ، يعبر قطعة من الزبد الطازج ، متجهًا نحو عنقه ، حاملاً الموت إليه ..

وانطلقت أفكار (هاشم) فى انفعال بالغ ..

هل سقط أخيرًا ؟

هل حانت لحظة الفشل ، التى يخشاها طيلة عمره ، والتى يعجز فيها عن الإيقاع بالمجرم ، فيلقى حتفه جزاء هذا ؟

انطلق فى رأسه شريط سريع من الذكريات ، حمل إليه كل معاركه السابقة فى سبيل العدالة ، مع وجه رفيق كفاحه (يحيى) ، الذى لم يُشاركه هذه القضية التى بدت وكأنها آخر القضايا .. حاول مرة ثانية التخلُّص من قيوده ، إلا أنه أدرك مرة أخرى كم هى قوية متينة ، تعجز عضلاته وحدها عن قطعها ..

واقترب خيط الأشعة القاتل من عنقه ..

واقترب ..

واقترب ..

وفجأة اقتحم أحدهم باب الحجرة ، واندفع نحو جهاز الأشعة ، ورآه (هاشم) فى زى طاقم الأمن ، يبحث بين الأزرار العديدة عن زرّ الإيقاف ، ثم يضغطه ..

وتوقف خيط الأشعة القاتل ..

وتلاشى ..

وفى اللحظة التى أطلق فيها (هاشم) من فوره تنهيدة ارتياح قوية ، غير مُصدّق نجاته من هذا الموت المحتوم ، اقترب منه منقذه ، الذى يرتدى زى طاقم الأمن ، وسأله فى انفعال ، وهو يحل وثاقه :

ـ من فعل بك هذا ؟

تطلّع (هاشم) إلى وجهه ، وهو يُجيب :

ـ لست أدرى يا (أيمن) .. لست أدرى !!

حلّ (أيمن) وثاق قدميه فى سرعة ، وهو يقول :

ـ يا إلهى !! حمدًا لله على أننى قد وصلت فى الوقت المناسب ..

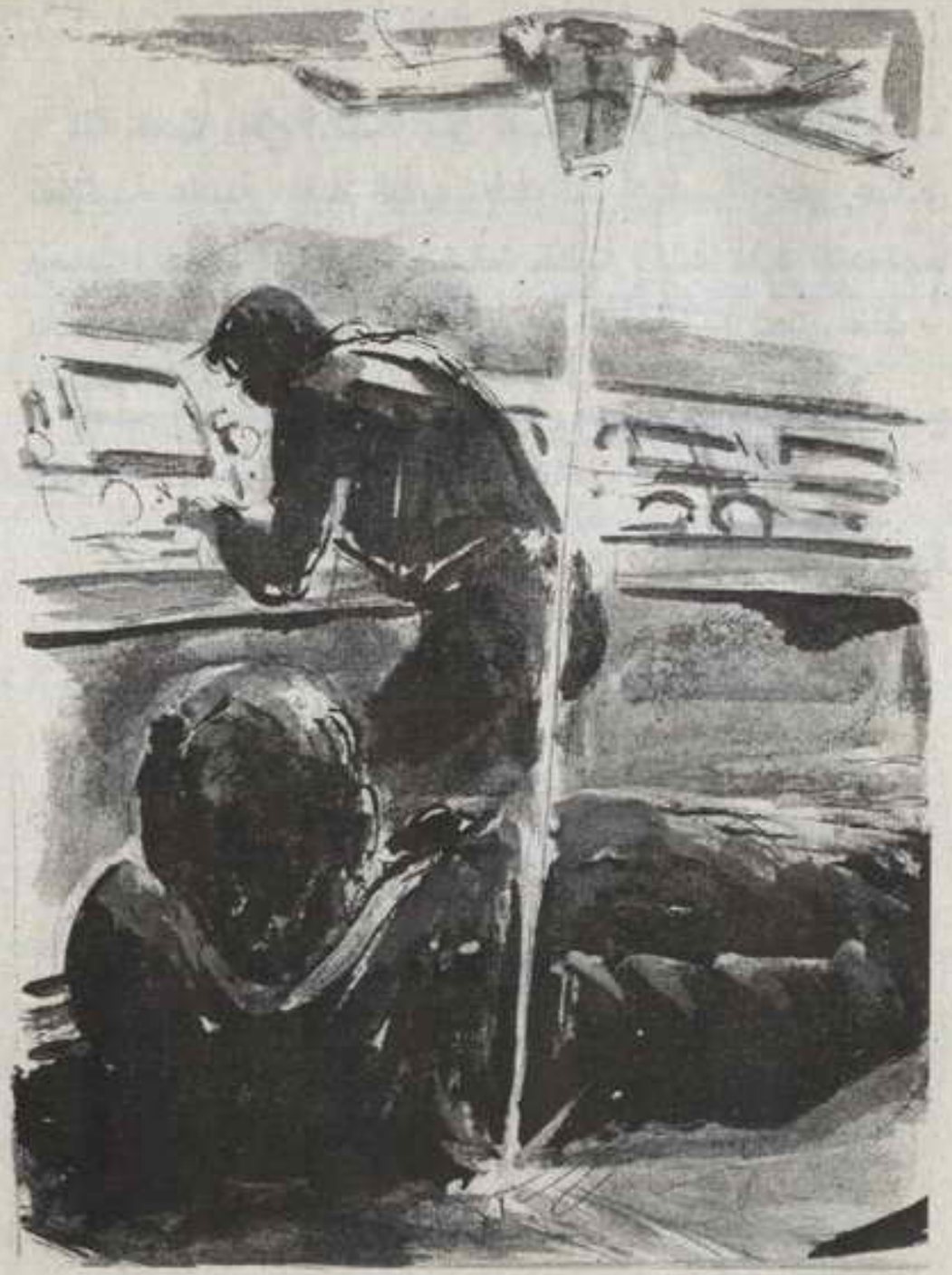

وفجأة اقتحم أحدهم باب الحجرة ، واندفع نحو جهاز الأشعة ، ورآه (هاشم) فى زى طاقم الأمن ، يبحث بين الأزرار العديدة عن زرّ الإيقاف ..

لقد لمحت وهج الأشعة من الخارج ، وأنا أعبر فى جولة تفتيشية عادية ، أمام الباب ، فأدركت أن أمرًا غير عادى يحدث ، خاصة أن الحجرة كانت خالية ، لذا فقد اقتحمتها بلا تردد ، ووجدتك هنا ، وتلك الأشعة اللعينة تكاد تجتز عنقك .

غمغم (هاشم) ، وهو يتحسس معصميه ، عند موضع القيود :

ـ أحسنت بفعلتك هذه . أأنت وحدك المسئول عن حراسة هذه المنطقة ؟

أجابة (أيمن) :

ـ لا .. هناك (عمر) و (جاد) أيضًا .

ثم عقد حاجبيه ، مستطردًا :

ـ ولكننى لم أرهما منذ انقطاع التيار .

سأله (هاشم) :

ـ ومن أى مكان يمكن قطع التيار ؟

أجابه (أيمن) :

ـ من الحجرة الرئيسية ، فى الطابق الأول ، أسفل حجرتنا هذه مباشرة .

عقد (هاشم) حاجبيه لحظات مفكرًا ، ثم قال فى حسم :

ـ أظننى أحتاج إلى رؤية (جاد) .

أجابه (أيمن) فى حذر :

ـ لماذا ؟ إنه لم يُغادر حجرة الأمن منذ غروب الشمس ، إلا مرة واحدة عند انقطاع التيار .. و ..

قاطعه (هاشم) :

ـ ربَّما لهذا أرغب فى رؤيته .

هزَّ (أيمن) كتفيه ، وقال :

ـ كما تشاء .. هيا نهبط إليه .

هبطا معًا إلى حجرة الأمن ، فى الطابق الأول ، حيث كان يجلس (عمر) و (جاد) ، ولم يكد الأخير يراهما ، حتى هتف فى تهكم :

ـ ما هذا ؟ هل عثرت على رجل الأمن العبقرى بأعلى يا (أيمن) .. يا لها من مصادفة !! وماذا كنت تفعل هناك أيها العبقرى ؟

أجابه (هاشم) فى خشونة :

ـ كنت أختبر جهاز الأشعة الجديد أيها التافه .

تقافز الغضب من عينى (جاد) ، وقال فى حدة :

ـ قل لى يا سيِّد (هاشم) : هل تتصوَّر أن نتغاضى عن سخافتك هذه ؛ لمجرد أن وجودك هنا رسمى ؟

أجابه (هاشم) فى صرامة :

ـ بل أتوقَّع محاولة قتل .

التفت إليه (عمر) فى دهشة ، فى حين هتف (جاد) فى توتر :

ـ محاولة قتل ؟!

أسرع (أيمن) يقول :

ـ لقد تعرَّض السيد (هاشم) لمحاولة قتل ، بوساطة جهاز الأشعة الجديد .

اتَّسعت عينا (عمر) ، وهو يهتف فى جزع :

ـ يا إلهى ! هنا ؟!

أما (جاد) ، فقد هتف :

ـ إنه يستحق هذا .

أجابه (هاشم) فى غلظة :

ـ بالتأكيد ، ما دمت تعجز عن إتمام مهمتك القذرة فى وجودى .

صرخ (جاد) فى غضب :

ـ أيها الوقح .

وقفز نحو (هاشم) فى غضب وناوله لكمة قوية كالقنبلة ، تفاداها (هاشم) باتحناءة بارعة مرنة ، ثم هوى بقبضته على معدة (جاد) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لست أنا الوقح يا رجل .

ثم أعقبها بأخرى فى فك الرجل مستطردًا :

ـ الوقح هو من يخون وطنه .

انثنى (جاد) للكمة ، وسقط للثانية ، ولكنه عاد يقفز واقفًا على قدميه ، وأطلق صرخة ثائرة ، وهو يندفع نحو (هاشم) ثانية ، ولكنّ (هاشم) تفادى انقضاضته هذه المرة بقفزة جانبية رشيقة ، ثم أمسك يده فى سرعة ، ولواها خلف ظهره ، ثم أحاط عنقه بساعده فى قوة ، وهو يقول :

ـ والوقح هو من تسلل من حجرة الأمن ، وقطع التيار الكهربى عن المكان كلّه ، ثم باغتنى فى الطابق الثانى ، وأفقدنى الوعى ، وحاول قتلى .

هتف (جاد) بكلمات مختنقة :

ـ ولماذا أقتلك ؟

أجابه (هاشم) :

ـ لتتخلص منى ، قبل أن أكشف خيانتك لوطنك ، وألقى القبض عليك ، لتلقى جزاءك العادل .

اختنق صوت (جاد) أكثر ، بتأثير ضغط ساعد (هاشم) القوى ، وهو يقول :

ـ أنت مخطئ أيها العبقرى .. لست أنا من قطع التيار الكهربى ، ولست أنا من هاجمك وحاول قتلك .

شدَّد (هاشم) من ضغط ساعده أكثر ، وهو يقول :

ـ أعطنى دليلاً واحدًا على هذا .

هتف (جاد) فى غضب :

ـ الدليل أكثر بساطة مما تتصوَّر ، فلقد كنت أجلس هنا عندما انقطع التيار الكهربى .

ورفع (هاشم) عينيه إلى (أيمن) فى دهشة ، وسأله :

ـ أهذا صحيح ؟

أجابه (أيمن) فى توتر :

ـ بالتأكيد .

تخلى (هاشم) عن عنق (جاد) وهو يقول لـ (أيمن) فى عصبية :

ـ لماذا خدعتنى إذن ؟

أجابه (أيمن) فى حدة :

ـ أنا لم أخدعك .. لقد قلت إن (جاد) لم يُغادر حجرة الأمن إلا مرة واحدة ، عند انقطاع التيار الكهربى ، ولم أقل إنه قد فعلها قبل ذلك .

هتف (جاد) فى غضب ، وهو يمسك عنقه :

ـ هل رأيت أيُّها العبقرى ؟ كان ينبغى أن تنظر إلى الأمور كلها أوَّلاً ، قبل أن تُلقى اتهامك هكذا جزافًا ، بدلاً من أن تنظر إلى مرآة من الأنانية ، لا ترى فيها سوى نفسك .

برقت عينا (هاشم) فجأة ، وأمسك كتفى (جـاد) فـى قـوة ، وهتف فى سعادة :

ـ يا إلهى ! أنت قلتها يا رجل .. أنت فعلتها ..

سأله (أيمن) فى دهشة :

ـ ماذا حدث ؟!

التفت إليه (هاشم) ، وهتف :

ـ لقد عرفته يا رجل .. عرفت من هو الخائن .

واتّسعت العيون كلها فى ذهول ..

★ ★ ★

اتّجهت العيون كلها إلى (هاشم) ، مع صمـت رهيب ثقيل ، بدا وكأنّما يجثم على صدور الجميع ، فيما عدا (هاشم) الـذى التمعت عيناه فى ظفر واضح ، وارتسمت علـى شفتيه ابتسامة فائزة واثقة ، حتى قطع (عمـر) ذلـك الصمـت الرهيب ، وهـو يقول فى حذر :

ـ من هو الخائن يا رجل ؟

أدار (هاشم) عينيه فى وجوه الثلاثة ثم قال :

ـ إنه شخص يا (عمر) يُجيد وضع خطته وتنفيذها ، إلا أنـه ليس بالذكاء الكـافى الخبيث لإتمـام خطتـه دون أخطـاء ، فعلى الرغم من محاولته الظهور فى مظهر برىء ، فإنـه كـأى مجرم ارتكب خطأ واحدًا ، كشف أمره وأزاح القناع عن وجهه .

سأله (جاد) فى خشونة :

ـ ومن هو ؟

أدار (هاشم) عينيه فى وجوههم مرة أخرى ، ثم توقّف عنـد أحدهم ، وقال فى صرامة :

ـ إنه أنت .

تراجع الذى وجه إليه (هاشم) اتهامه ، وهتف فى ذهول :

ـ أنا !!

عقد (هاشم) ساعديه أمام صدره ، وهو يقول فى حزم :

ـ نعم .. إنه أنت يا (أيمن) .. أنت ذلك الخـائن ، الـذى خـان وطنه ، وسعى لإفساد قوته ، مقابل بعض المال فحسب .

حدّق (عمر) و (جاد) فى وجـه (أيمـن) فـى ذهـول ، فـى حين هتف هذا الأخير فى حدة :

ـ لقد أنقذت حياتك .

أجابه (هاشم) :

ـ هذه هى أبرع نقطة فى خطتك ، فلقـد هـاجمتنى فـى الممرّ المظلم ، وأفقدتنى الوعى ، ثم حملتنى إلى حجرة البحث ، حيث قيدّتنى إلى المنضدة ، وأشعلت جهاز الأشعة ، وتركته يتحرّك نحوى فى بطء ، ثم غادرت الحجرة ، ووقفت خلف بابها ، وانتظرت حتى أشـارت سـاعة معصمـك إلـى أن الأشـعة قـد اقتربت مـن عنقـى كثيرًا ، ثم اقتحمت الحجرة ، وأوقفت الجهـاز ، وتظاهرت بإنقاذ

حياتى ، وأنت تتصوّر أن هذا يمنحنى شعورًا بالعرفان بالجميل ، ويخفى عنى أى دليل يُدينك ، فتبتعد شبهاتى بعيدًا ..

لوّح (أيمن) بيده فى حدة ، صائحًا :

ـ مجرّد تخمين سخيف .

أجابه (هاشم) :

ـ بل حقيقة يا (أيمن) ، فلقد وقعت فى خطأ قاتل ، عندما قلت لى : إنك كنت تعبر الممرّ فى تفتيش عادى ، ثم لمحت وهج الأشعة ، فاقتحمت الحجرة ، فى حين لم يكن بإمكانك أبدًا رؤية الوهج ، لأن زجاج الباب من نوع خاص ، كما أخبرنى (عمر) يسمح للموجودين داخل الحجرة برؤية ما يحدث خارجها ، ولكنه يبدو كالمرآة ، بالنسبة للواقف خارجها ..

اتّسعت عينا (أيمن) فى ذعر ، وقد أدرك الخطأ الذى وقع فيه ، فى حين تابع (هاشم) فى ارتياح :

ـ والعجيب أننى لم أنتبه إلى هذا ، حتى قال (جاد) : إننى أكتفى بالنظر فى مرآة من الأنانية .. عندئذ تذكرت أمر زجاج الباب وأدركت الخطأ الذى ارتكبته أنت ..

هتف (عمر) فى ذهول :

ـ أنت يا (أيمن) .

وفجأة قفز (أيمن) إلى الخلف ، وانتزع مسدسه ، وصوّبه إلى الجميع ، هاتفًا فى عصبية :

ـ نعم .. أنا .. ولكننى لست خائنًا ، فلست أنتمى إليكم .. صحيح أن أوراقى كلها تقول إننى عربى ، ولكنها كلها مجرّد أوراق مزورة ، نجحت فى ضمى إلى طاقم الأمن منذ زمن .. إننا لن نسمح لكم أبدًا بالتفوّق عسكريًا .. هل تفهمون ؟

سأله (هاشم) فى صرامة :

ـ وما الذى تنوى أن تفعله الآن ؟ هل ستقتلنا جميعًا ؟

هتف (أيمن) :

ـ ولم لا ؟

أجابه (هاشم) :

ـ لأن باقى رجال الحراسة لن يسمحوا لك بالفرار ، بعد قتلنا ..

أطلق الخائن ضحكة عصبية ، قبل أن يقول :

ـ أخطأت هذه المرة أيها المغرور .. مسدّسى هذا مزوّد بكاتم للصوت ، يُتيح لى قتلكم ، دون أن يشعر بذلك مخلوق واحد ، وبعدها سأركب سيارتى بكل هدوء ، وأغادر المكان رسميًا ، بحجة تفقد الطريق ، فهذا العمل من مهام الأمن ، وبعدها سأنطلق مباشرة إلى المطار ، حاملاً جواز سفر دبلوماسيًا ، يحمل شعار دولة صديقة لكم ، بحيث لن يعترضنى مخلوق واحد ، فأبلغ دولتى آمنًا .

قال (هاشم) :

ـ وماذا عن جهاز الأشعة المتطوّر .. هل ستتركه هكذا .. دون تدمير ؟

لوح (أيمن) بفكه ، وقال :

ـ من قال هذا ؟ إننى أحمل أربع قنابل بلاستيكية قوية ، سأزرعها قبل رحيلى ، فى أربعة أماكن مختلفة ، بحيث تنسف المبنى كله ، بعد ساعة من انصرافى ..

وابتسم فى سخرية مستطردا :

ـ ما رأيك يا رجل الأمن العبقرى ؟ ألا تبدو لك خطتى عبقرية محكمة ؟

وفجأة اختطف (جاد) منفضة سجائره ، وألقاها نحو (أيمن) ، هاتفا فى غضب :

ـ أيها الخائن .

مال (أيمن) جانبا فى سرعة ، متفاديا المنفضة ، ولكنه لم يكد يعتدل ، حتى وجد (هاشم) أمامه مباشرة ، وقبل أن يسأل نفسه : كيف بلغه (هاشم) بهذه السرعة ، كانت يد هذا الأخير اليسرى تمسك معصمه ، وتبعد فوهة مسدسه ، فى حين انقبضت أصابع اليد اليمنى ، وتحولت إلى قنبلة ، قفزت لتنفجر فى وجهه ، وتطيح به بعيدا ..

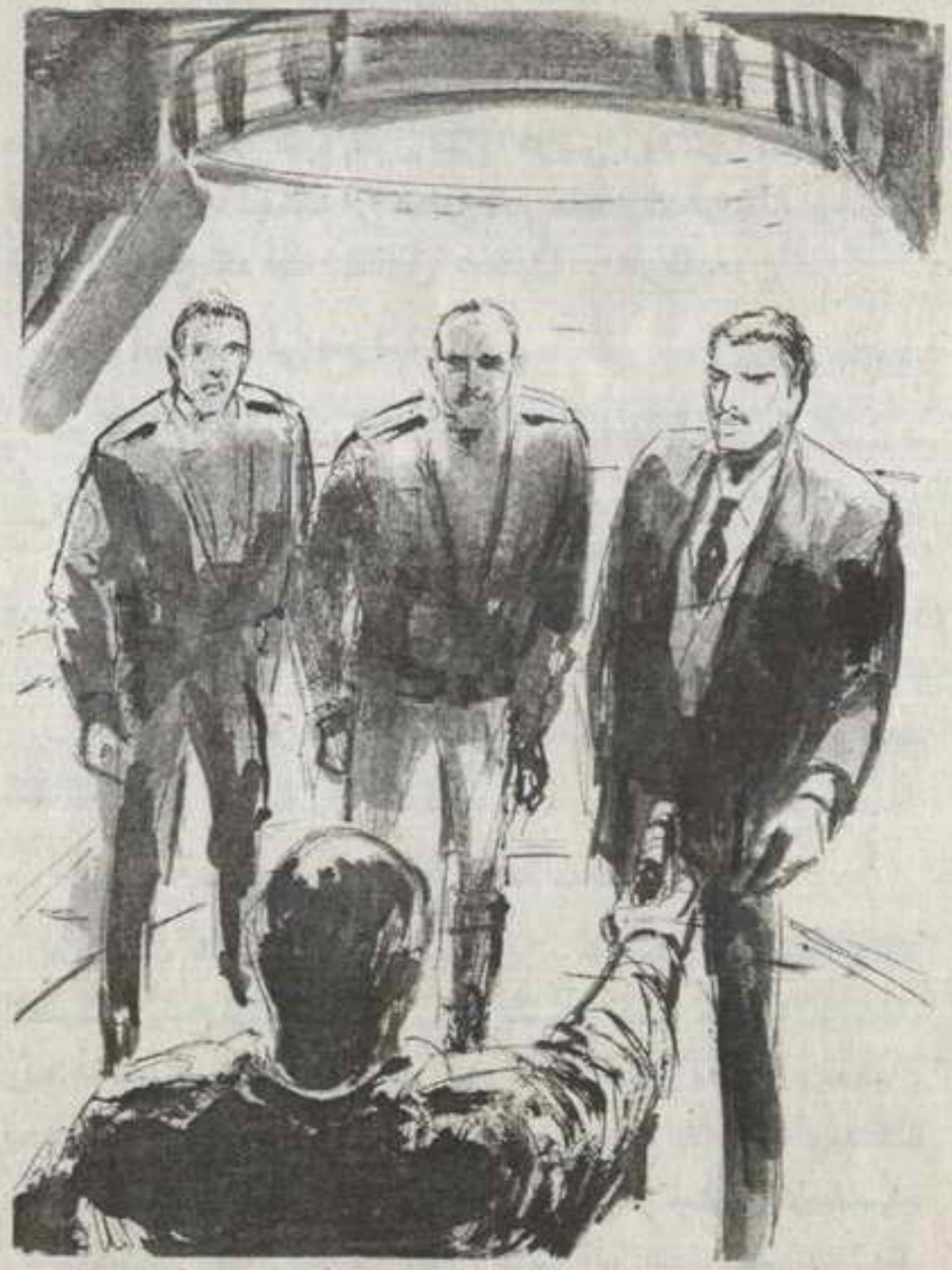

وأطلق الخائن ضحكة عصبية ، قبل أن يقول : ـ أخطأت هذه المرة أيها المغرور .. مسدّسى هذا مزوّد بكاتم للصوت ..

وقبل أن يستوعب عقله ما حدث ، كان (هاشم) يجثم فوقه ، ويحيط معصميه بالأغلال ، وهو يقول فى سخرية :

ـ ما دمت قد سألتنى رأيى ، فالواقع أننى ما زلت أصر على قولى أيها الخائن .. أنت خبيث ، ولكنك بالذكاء الكافى ، لتضع خطة محكمة .

هتف (أيمن) فى مرارة :

ـ لقد ساعدك حسن الحظ فحسب .

هز (هاشم) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ لا يا رجل .. لست أؤمن بالحظ ، بل بالعناية الإلهية ، التى لا يحصل عليها الخونة أمثالك .

وعندما ابتسم هذه المرة ، كانت ابتسامته مفعمة بالثقة والإيمان ..

والظفر ..

★ ★ ★

شد مدير مركز الأبحاث العسكرية على يد (هاشم) فى حرارة ، وهو يهتف :

ـ رائع يا (هاشم) .. رائع بالفعل .. لقد حللت قضية شديدة التعقيد ، عجزنا جميعًا عن حلها ، فى أقل من أربع وعشرين ساعة ..إنك عبقرى بالفعل كما يقول الجميع .

أجابه (هاشم) فى هدوء :

ـ إنما هو توفيق من اللّه (سبحانه وتعالى) يا سيدى .

هتف المدير :

ـ بالطبع يا (هاشم) ، ولكن هذا لا يمنعنا من منحك وسامًا .

هز (هاشم) رأسه نفيًا ، وقال :

لا سيدى .. لم أفعل هذا من أجل وسام ، وإنما فعلته من أجل الحق والعدالة ، ويكفينى فخرًا أن وفقنى اللّه (سبحانه وتعالى) إلى حل اللغز ، وإلقاء القبض على الخائن ، الذى هدد أمن وطنى وسلامته ..

والتقط نفسا عميقا وهو يرفع عينيه إلى علم بلاده ، مستطردا فى اعتزاز وفخر :

ـ هذا هو الوسام الحقيقى يا سيدى .

★ ★ ★

(تمت)

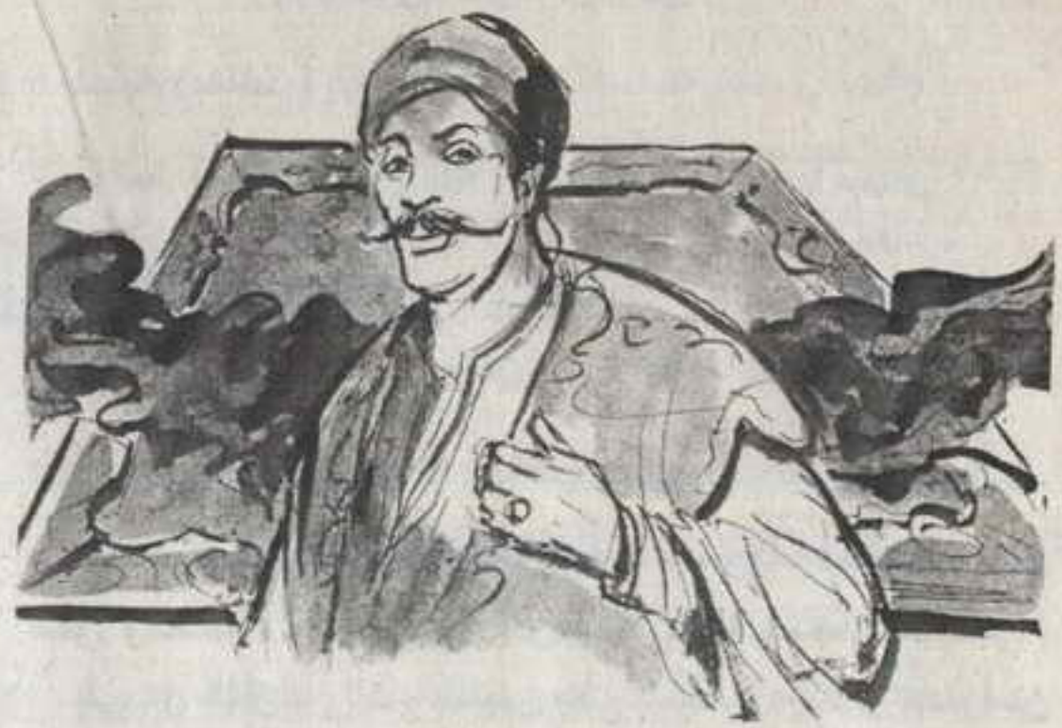

اختلاف

[قصة قصيرة]

ماذا أصاب الكل ؟!

ما الذى غير أسلوبهم تجاهه على هذا النحو ؟!

بل ماذا حدث للمنزل كله ؟!

لماذا يتجاهله الجميع على هذا النحو ؟!

إنه كبير العائلة وعميدها ، وولى نعمتها أيضًا ، والمفترض أن يحيطه الكل بالاحترام والتوقير والتقدير ..

ولقد كان هذا ما يفعلونه ، قبل مرضه الأخير ..

كان الكل يرعاه ، ويتملّقه ، ويبذل الكثير والكثير لاكتساب وده ..

ثم فجأة ، لم يعد هناك من يبالى بوجوده ..

حتى ابنته الكبرى ، التى اعتبرها دومًا أكثر أبنائه عطفًا وحنانًا ، تجاهلته تمامًا ، عندما ابتسم فى وجهها هذا الصباح ..

كانت منهمكة فى إعداد أشياء كثيرة ، فلم تبال به إطلاقًا ..

وعندما صرخ فى وجهها ، وصاح مطالبًا إياها بالاحترام الواجب ، من الابنة تجاه والدها ، أشاحت بوجهها عنه ، وواصلت عملها بنفس الانهماك ، وكأنما لم يعد يعنيها أمره قط ..

يا لسخافة الدنيا !

الكل يلتف حولك ، عندما تشرق لك الشمس ، ثم ينفضون بسرعة البرق ، مع أول قطرة مطر تنهمر عليك .

كان ينبغى أن يدرك هذا منذ البداية ..

وأن يعيه جيدًا ..

وخاصة مع حياته الحافلة ، التى قضاها فى العمل والكفاح والجهد ، حتى صار واحدًا من أشهر التجار ، وأكثرهم ثراءً ومهابة ..

وطوال حياته الحافلة ، لم يجرؤ مخلوق واحد فى عائلته كلها ، على رفع عينيه فى وجهه ..

كان هو الآمر الناهى ، وصاحب الكلمة النافذة ، فى كل الظروف والأحوال ..

ولِمَ لا ، ما دام يطعمهم ويكسوهم جميعًا من ماله ..

وما دام هو الأقوى ..

والأكثر ثراءً ..

ثم إنه يختلف عن الكل ..

طيلة عمره يدرك أنه يختلف عنهم جميعًا ..

إنه أكثر براعة ، وذكاءً ، وحنكة ..

بالتأكيد هو يختلف ..

الآن بالذات يشعر بأنه يختلف عن كل من حوله ..

يختلف تمامًا ..

وهؤلاء الأغبياء لا يدركون هذا ..

وهذا أفضل ..

إنها فرصة ، ليعرف حقيقة مشاعرهم نحوه ..

إنهم ما زالوا يحتفظون بصورته الكبيرة فى نفس موضعها ، فى صدارة حجرة الصالون الكبرى ، ولكنهم يتجاهلونه هو على نحو مستفز ..

كل منهم منشغل تمامًا فى عمله ، وفى الإعداد لذلك الاجتماع ، الذى يولونه كل اهتمامهم وعنايتهم ..

يا للمنافقين !

لو أنه لم يعان من هذا المرض الأخير ، لما فعلوا به هذا ..

لو أنه ظلّ قويًا كما كان دائمًا ، لوضعوا ألف حساب لمشاعره ...

أما الآن ، فالكل يتصرّف وكأنما لا وجود له ..

وكأنما انتهى كل شىء بمرضه ..

ولكنه يحمل لهم مفاجأة كبرى ، لا يمكنهم تصوّرها قط ..

إنه لم يعد يعانى المرض ..

لم يعد يشعر بالضعف والعجز والألم ..

لم يعد مقعدًا كذى قبل ..

ولكنهم يجهلون هذا تمامًا ..

وهذا أفضل ما فى الأمر ..

دعهم يتصرفون ويتعاملون بتلقائيتهم المستفزة هذه ، حتى تحين لحظة المواجهة الكبرى ..

اللحظة التى سيدركون فيها الحقيقة ..

كل الحقيقة ..

وفى هدوء وصمت ، جلس فى الركن ، يراقبهم بعينى ذئب ، وابتسامة ثعلب ماكر ، يتابع فريسته فى اهتمام ، انتظارًا للحظة الانقضاض والفتك ..

ومن ناحيتهم ، لم يوله أيهم أدنى اهتمام ..

لقد واصلوا عملهم ، وتجهيزاتهم لحجرة المكتب الكبيرة ، على نحو يوحى بأنهم فى انتظار ضيف مهم للغاية ..

ومن بقعة ما فى أعماقه ، بدا له أنه يعرف طبيعة ذلك الضيف ..

ومهنته ..

لم يدر كيف أدرك هذا ..

ولكنه أدركه ..

بل وعلم أيضًا أنه سيأتى فى تمام السابعة ..

وكم كانت دهشته ، عندما صدقت تنبؤاته تمامًا ..

.

تُرى ما الذى يعنيه هذا ؟!

ما الذى جعله قادرًا على التنبؤ والاستنتاج ، على هذا النحو ؟!

لقد قرأ الكثير فى هذه الأمور ، وعن البصيرة التى تتفتَّح للمرضى ، و ..

ولكن هذا لا يهم الآن ..

المهم أن الضيف الذى يتوقَّعه قد وصل ..

وفى موعده تمامًا ..

إنه محاميه ..

يا للخائن !

هو أيضًا تجاهله تمامًا ، ولم يلق عليه حتى التحية ، وهو يدخل إلى حجرة المكتب ، ثم ـ ويا للوقاحة ـ يجلس على مقعده هو !!

يا له من صفيق !!

فى الماضى كان يقف طوال الوقت ، ولا يجرؤ على الجلوس لحظة واحدة فى وجوده ..

وهذا أمر طبيعى ، ما دام يحصل منه على ثروة فى كل عام .

ثروة يحلم بها أى محام ، فى (مصر) كلها ..

ولكن لماذا يدهشه هذا ؟!

إنها طبيعة الدنيا ..

وطبيعة البشر ..

أقاربه كلهم اجتمعوا فى حجرة المكتب ، يتطلّعون إلى المحامى فى لهفة كبيرة ..

يا للأوغاد !!

لا ريب فى أنهم يسعون لتجريده من ثروته ..

أو للحجر عليه ، باعتبار أن مرضه قد أثر فى قواه العقلية ..

ولكنه لن يسمح لهم بهذا ..

سيواجههم فى اللحظة المناسبة ، ويصرخ فى وجوههم معلنًا الحقيقة ..

حقيقة أنه لم يعد مريضًا ..

لقد استعاد صحته ..

وحيويته ..

ونشاطه كله ..

بل إنه يشعر بنشاط أكثر من كل ما شعر به ، فى حياته كلها ..

وسيطلق هذا النشاط فى وجوههم ، التى تحمل كل لهفة الدنيا ، وهم يستمعون إلى محاميه الخائن ، وهو يقرأ عليهم وصيته ، و ...

ولكن مهلاً !!

يقرأ وصيته ؟!

ولكن هذا يعنى أنه .. أنه ..

رباه ! الآن فقط أدرك لماذا يشعر بأنه مختلف ..

ولماذا يشعر بكل هذا النشاط ..

الآن فقط أدرك لماذا يتجاهله الجميع ..

هذا لأنه لم يعد ـ فى الواقع ـ يحيا معهم ..

أو مع أى مخلوق ، فى الدنيا كلها ..

لقد غادر الحياة كلها ، وأصبح مجرَّد ..

شبح ..

عندئذ فقط ، ومع إدراكه لحقيقته ، لم يعد يبال بكل ما يحدث حوله ..

بأقاربه ، ومحاميه .. وحتى ثروته ..

وفـى استسلام حزين ، راح ينسحب من حجـرة المكتـب ، والمنزل ..

والدنيا كلها ..

إلى عالم يختلف ..

تمامًا .

★ ★ ★

٤ ـ صديقى اللص ..

الحياة فى (أبو دياب شرق) ، تختلف حتمًا عن كل أنواع الحياة ، التى تعرفونها فى وجه بحرى .. بل وحتى عن طبيعة الحياة فى مدينة (قنا) نفسها ..

فعندما تحيا فى حضن الجبل ، تصبح هناك أبجديات وقواعد جديدة ، ونظم لا تنتمى لعالم النظم ..

هناك ، ساعات العمل لا ترتبط بما قدَّرته وحدَّدته الحكومة ، بقدر ما ترتبط بمزاج الزبون ، الذى يتجاهلك تمامًا ، طوال فترة الكشف الرسمية ، لأنه منشغل فى زراعة حقله وريّه ، وحصاده ، وأكل المش أبو دود فيه ، حتى تغيب الشمس ..

ومع مغيبها ، يعود إلى منزله العامر ، ليشمّر ساعديه ، وينقضّ على طعامه كالغيلان ، دون أن يفكّر فى التوقُّف ، قبل أن تعلن معدته نفسها الاستسلام (بغضّ النظر عن طبيعة الطعام نفسه) ، وتئن وتتوجّع ، وتنتفخ بكرش مؤقَّت ..

وهنا يحين موعد النوم والراحة ، وأكواب الشاى الأسود ، الذى قدَّم بنفسه شكوى باكية ، لوزارة التموين ، والداخلية ، ولجان حقوق الإنسان ، اعتراضًا على غليه للمرة العاشرة ، خلال أسبوع واحد ، وفى الوعاء نفسه ..

وفى العاشرة ، أو الحادية عشرة ، أو حتى بعد منتصف الليل ، يتذكّر فجأة ، بلمحة عبقرية مباغتة ، أن ابنه مصاب بنزلة شعبية حادة ، من الصيف الماضى ، وأن الوقت قد حان ، لحمله إلى طبيب الوحدة الصحية ..

للمسكين ..

والمسكين هنا هو أنا طبعًا ، عندما أستيقظ فى الواحدة والنصف صباحًا ، للكشف على طفل مريض ، يتصوَّر ، من طول فترة مرضه ، أن هذه هى الأعراض الطبيعية للحياة البشرية التقليدية ..

وأوّل ما ينبغى أن تتعلّمه ، فى أعماق الصعيد ، هو أن الاعتراض ممنوع ، والزعل مرفوع ، والرزق على اللّه ، وأيًا كان الموعد ، الذى يأتى فيه المريض ، عليك أن تستقبله بابتسامة كبيرة ، وهدوء شديد ، وأنت تزيل (العماص) من عينيك ، وتتثاءب ، وتحاول توقيع الكشف عليه بكوز ذرة ، متصوِّرًا (فى الحلم طبعًا) أنك أبرع طبيب ، فى العالم كله ..

والأكثر مدعاة لسرورك ، هو أن والد الطفل المسكين سيعود إلى منزله ، حاملاً طفله ، والتذكرة الطبية التى كتبتها أنت له ، ليلقيهما معًا فى أى ركن ، وينس الأمر تمامًا بعدها ، باعتبار أن الشفاء من اللّه (عزّ وجلّ) ، وليس من الطب والدواء ..

أما أنت ، فعليك أن تنسى تمامًا تلك المقولة الحمقاء ، التى تشير إلى احتياج كل آدمى لفترة متصلة من النوم ، تبلغ ست ساعات فى المتوسّط ؛ لأنك لن تحظى قط بتلك الساعات الست ، أو بأى عدد من الساعات المتصلة ، فى موضوع النوم هذا ؛ لأن أى شخص سيأتى من أجل الكشف الطبى ، فى أى وقت ، وأى زمان ..

وخاصة عندما يتعلّق الأمر بالكشف على امرأة صعيدية هوّارية ..

بل إن الليل سيرتبط فى ذهنك بالعمل ، وليس بالنوم والراحة ، كما هو فى واقعه ..

ولقد كان هذا يستفزنى بشدة فى البداية ، وكنت أبذل جهدًا زائدًا ، لشرح الأمر لكل زائر ليلى ، وإقناعه بأن وجودى الدائم فى المكان ، لا يعنى أننى أختلف عن أى بشرى ، فى احتياجه للنوم والراحة ، و ...

وفوجئت بأن هذه النكتة السخيفة تضحكهم بشدة ، فكل من أخبره بالأمر ينفجر ضاحكًا ، ويقهقه ، حتى تصوّرت أننى أكثر وسامة من (إسماعيل ياسين) ، ولدى خفة ظل تنافس (حسن البارودى) ، وروح مرحة تفوق (أمينة رزق) ..

وذات مرة ، وبعد أن استفزتنى ردود الأفعال هذه ، سألت أحد كبار الهوّارة عما يضحك الناس ، عندما أقول إننى بحاجة للنوم والراحة ..

وفوجئت بالرجل يقهقه ضاحكًا بدوره ، حتى يكاد يستلقى على قفاه ، كما تقول روايات ألف ليلة وليلة ، إلى الحد الذى كاد يقنعنى بتسجيل هذه النكتة ، والحصول على حق أداء علنى عنها ، لولا أن فاجأنى هو بالجواب :

ـ ولماذا تحتاج إلى النوم والراحة يا دكتور ؟! إنك تقيم فى الوحدة الصحية طوال الوقت .. هل تقضى يومك فى الزرع والحرث مثل الآخرين ؟!

وعندئذ فقط أدركت المعنى ..

الناس تضحك ؛ لأن عبقريتهم أنبأتهم بأنه ما دمت لا أعمل فى الزرع والحرث والحصاد ، فلماذا أحتاج إلى الراحة .. أو حتى إلى النوم من الأساس ..

وهم معذورون بالتأكيد فى وجهة نظرهم هذه ، فباستثنائى وحدى ، يتحرّك كل من حولهم ، وما حولهم ، بمنتهى النشاط ، من مطلع الشمس ، وحتى مغربها ..

هم ، وزوجاتهم ، وأبناؤهم ، وبناتهم ، وبهائمهم ، وحميرهم ، وحتى فئرانهم ..

ومن وجهة نظرهم العبقرية هذه ، كان الحمار يستحق الراحة فى الليل ..

أما أنا فلا ..

ما علينا .. إنها ليست النظرية العلمية الوحيدة ، التى لم تثبت صحتها أبدًا ..

المهم أننى قد اعتدت ، بعد فترة قصيرة ، نظرية زائر الليل هذه ، وتعايشت معها ، وأدمنت الكشف بكوز الذرة ..

حتى ظهر (محمود) ..

و (محمود) هذا صعيدى أيضًا ، ولكنه فى حجم اثنين من الصعايدة ، تم دمجهما معًا ، وإعادة تشكيلهما مرة أخرى ، فهو أطول منى بنصف المتر على الأقل (وأنا لست قزمًا بالطبع) ، وعرضه أقرب إلى عرض باب الوحدة ، وملامحه أقلّ وسامة من ملامح مسخ (فرانكنشتاين) بدرجة واحدة فحسب و...

ثم إنه يحمل على كتفه مدفعًا آليًا ، يبدو من ضخامته أشبه بالمدافع المضادة للطائرات ..

ولقد التقيت بالأخ (محمود) هذا لأوّل مرة ، فى الثالثة

صباحًا ، من ليلة حارة كاللهيب ، ككل ليالى صيف الصعيد ، عندما كنت أستغرق فى نوم عميق ، ثم قفزت من فراشى مذعورًا ، على صوت قنابل تتفجّر فى باب الوحدة ..

ثم كشفت بعدها أنها لم تكن قنابل ، وإنما كانت دقات رقيقة ، من كف (محمود) ، على الباب ..

المهم أننى هرعت إلى الباب ، وفتحته ، بعد أن طار النوم من عينى ، وخُيّل إلىّ أن هذه الليلة بالذات شديدة الظلمة ، ولم يطلع لها قمر ، قبل أن أنتبه إلى أن جسد (محمود) ، هو الذى يسدّ طريقى ، ويمنع عنى ضوء القمر ..

وبصوت جميل رقيق ، أشبه بصوت عجل مصاب بالتهاب فى الحلق ، قال الأخ (محمود) ، وهو يرمقنى بنظرة مفترسة لطيفة :

ـ نريدك يا دكتور .

سألته بكل الشجاعة (الزائفة طبعًا) :

ـ فيم ؟!

زمجر ، قائلاً :

ـ أحضر كل أدواتك .. هيا .

ولأن الموقف كله لم يكن يشجّع على المناقشة ، أو الحوار الديموقراطى ، فقد أطعت أوامره ، وأحضرت حقيبتى الطبية ، وركبت البغل الذى أحضره معه ، وركب هو بغلتهَ ، وانطلق بها ، وبغلى يتبعها ، وكأنما فقد شخصيته تمامًا ، مثل .. ولّلا بلاش ..

وبعد نصف الساعة تقريبًا ، والجرى وسط الصخور والجبال ،

وجدت نفسى مع الأخ (محمود) ، أمام مجموعة من الأشخاص ، كلهم بنفس وسامته ، يلتفون حول آخر ، مصاب برصاصة فى فخذه ..

وأشار (محمود) بسبّابته ، التى هى فى حجم يدى كلها تقريبًا ، إلىَ المصاب ، وهو يقول بصوته الرقيق :

ـ هيا .. ابدأ عملك .

ولم يكن الأمر يحتاج إلى الكثير من التفكير أو التردُّد ، لذا فقد فتحت حقيبتى ، وأخرجت منها أدواتى ، وزجاجة كبيرة من صبغة اليود ، وعلى ضوء كلوب صغير ، بدأت عملى .

لم أكن قد قمت بمثل هذا العمل فى حياتى قط ، ولكن من حسن الحظ أن الرصاصة كانت مستقرة فى الفخذ فقط ، ولم تخترق العظام ، وأننى كنت أحمل معى مخدِّرًا موضعيًا ..

المهم أن الأمر قد استغرق منى ساعة واحدة تقريبًا ، وضعت بعدها الرصاصة فى يد (محمود) ، وأعدت قلبى إلى موضعه ، واطمأننت إلى أنهم لن يأخذوا ثأر زميلهم من جسدى أنا ..

وفى السادسة صباحًا تقريبًا ، عدت إلى الوحدة ، ودون أن ينطق (محمود) بكلمة واحدة ، وضع فى يدى رزمة أوراق مالية ، ولفافة كبيرة ، ثم انصرف على بغلته ، وذلك البغل المنعدم الشخصية يتبعهما مستسلمًا ..

ولربع الساعة تقريبًا ، جلست فى المسكن صامتًا ، لا أصدّق ما حدث ، وعقلى يدير الأمر على كل الوجوه ، ويستعيد كل لحظة منه ألف مرة ..

يا له من موقف !

من الواضح أننى قد تورطت مع بعض الخارجين على القانون ، أو المطاريد ، كما يطلقون عليهم هناك ، والذين تطاردهم الشرطة باستمرار ، مما يدفعهم إلى استيطان الجبال ، والإقامة فيها بصفة دائمة ..

وطبقًا للقانون ، والمنطق والعقل ، كان ينبغى أن أبلغ الشرطة عما حدث ..

ولكن طبقًا للقواعد هنا، كان الأفضل أن أحتفظ بالأمر سرًا ..

وفى درج المكتب ، ألقيت رزمة النقود ، واللفافة ، دون أن أحاول العد أو الفحص ، وألقيت جسدى على الفراش ، محاولاً الحصول على ساعة واحدة من النوم ، قبل أن يبدأ عمل الوحدة الصحية ..

وفى الصباح ، أو بمعنى أدق ، بعد ساعتين فقط ، بدأت فى جمع المعلومات عن الأخ (محمود) الوسيم هذا ..

المشكلة الوحيدة التى واجهتنى عندئذ ، هى أننى لم أكن أمتلك مجموعة كافية من الأجولة ، لجمع كل ما حصلت عليه من معلومات ، فقد كشفت فجأة أنه حتى الأطفال فى القرية يعرفون هذا الـ (محمود) ، فهو قاتل قديم ، وزعيم عصابة من

المطاريد وقطاع الطرق ، ومهرّب مخدرات (ماشاء اللّه) ومدان فى عدد من القضايا ، وتنتظره أحكام بالسجن لقرن ونصف تقريبًا ، مع حكمين بالإعدام ، وعلى الرغم من هذا ، فمنزله فى القرية ما زال قائمًا ، وزوجته تواصل انجاب طفل فى السنة على الأقل ، منذ هاجر هو إلى الجبل ، قبل سبع سنوات ..

وهذه الهجرة من الناحية الرسمية فحسب ، ولكن الواقع أنه يقضى معظم أيامه فى منزله ، ومع زوجته وأولاده ، ويسير فى القرية طوال الوقت ، بمدفعه الآلى الضخم ، دون أن يعترضه أحد ، أو تعلم الشرطة بأمره ، باعتبارها آخر من يعلم كالمعتاد ..

وبمناسبة الحديث عن الشرطة ، لقد ظلّ ضميرى يؤنبنى طويلاً ، قبل أن أحسم أمرى ، وأقرّر إبلاغ صديقى ضابط شرطة المنطقة بما حدث ..

وذات يوم ، ذهبت إليه فى النقطة مباشرة ، والتقطت نفسًا عميقًا ، ثم رويت له القصة كلها ، قبل أن أقول فى اهتمام بالغ ، وبلهجة من يلقى سرًا خطيرًا :

ـ الشىء المؤكّد أنهم يختفون فى الجبل .

رمقنى هو بنظرة دهشة مستنكرة ، وكأنما يهتف فى أعماقه :

(وحياة النبى .. طب ما احنا عارفين) ، ثم تراجع فى مقعده ، وتطلّع إلىّ طويلاً ، فى إشفاق شديد ، قبل أن يعتدل مرة أخرى ، قائلاً فى حزم :

ـ هل تريد رأيى الرسمى ، أم رأى صديق ؟!

أجبته بسرعة :

ـ رأى الصديق بالطبع .

تنهّد ، قائلاً :

ـ انس الأمر كله إذن ، ولا تفتح على نفسك أبواب الجحيم .

ولأن نصيحته صادفت هوى فى نفسى كما يقولون ، فقد اقتنعت بها على الفور ، وقرّرت نقلها إلى خانة التنفيذ فورًا ..

وعند عودتى إلى الوحدة ، فتحت درج المكتب ، من باب الفضول ، لمعرفة ما أعطانى إياه (محمود) ..

وكانت مفاجأة حقيقية ..

صحيح أنه قد أعطانى مائتى جنيه ، وهو ما يفوق إيراد أسبوع كامل ، فى ذلك الوقت ، ولكن هذا لم يكن سبب المفاجأة ، وإنما كانت المفاجأة الحقيقية فى محتوى تلك اللفافة ، التى صاحبت المبلغ ، وربما تكون هناك مفاجأة أخرى لكم ، إذا ما علمتم أننى

لم أتعرّف هذا المحتوى ، إلا بعد أن عرضته على (حجاج) ..

فقد كانت اللفافة تحوى طربة حشيش كاملة ، يكفى حجمها لإلقاء القبض علىّ بتهمة الاتجار فى المخدرات ..

كانت هذه هدية إضافية من (محمود) لقاء ما بذلت من جهد ، فى علاج عضو عصابته ..

ولأننى لم أرتبط يومًا بأى نوع من المخدرات (حتى لحظة كتابة هذه السطور) فقد تجاهلت توسلات وتضرعات ومحاولات (حجاج) ، وقمت بالتخلّص من الكمية كلها ، وبوسيلة انفطر لها قلب الأخ (حجاج) ، الذى أعتقد أنه فكّر جدّيًا يومها ، فى استئجار قاتل محترف ، (لِيَلْبَد) لى فى الذرة ، جزاء ما أهدرته من خيرات ، على حد قوله ..

الشىء الذى لم أتصوّره قط ، أيامها ، هو أن (محمود) قد اعتبرنى ، ومنذ تلك اللحظة ، الطبيب الخاص له ولعصابته ..

وخلال الأشهر التالية ، كان من المعتاد ، كلما سمعنا عن حملة من حملات الشرطة ، أن يأتى (محمود) بالبغل والبغلة ، بعد منتصف الليل ، ليحملنى مع حقيبة الأدوات الطبية ، فى رحلة طبية سياحية ، على حساب (مطاريد تورز) ..

وفى كل مرة كنت أعالج إصابة محدودة ، أو أخرج رصاصة من ذراع أو كتف ..

وفى كل مرة أيضًا ، كنت أحصل على الجنيهات المائتين ، ولفافة الحشيش ، التى ينفطر قلب (حجاج) لمصيرها ، وهو يدعو اللّه (سبحانه وتعالى) أن يرفع الأذى عن (محمود) وعصابته ، حتى يرتاح هو من العذاب ..

ولكن دوام الحال من المحال ..

لذا فقد كان من المحتم أن ينتهى شهر العسل ، بينى وبين صديقى اللص ، وأن تحين لحظة المواجهة العنيفة ، دون مقدمات ..

فذات ليلة ليلاء ، دقَّ (محمود) بابى ، فى الواحدة والنصف صباحًا ، بدقات كفه الهادئة ، التى أيقظت بعض النائمين فى (الإسكندرية) ، وعندما فتحت الباب ، رأيت وجهه متجهمًا متوترًا ، على نحو لم أعهده فيه من قبل ، وهو يطالبنى بإحضار كل الأدوات اللازمة ، والتحرُّك معه على وجه السرعة ..

وحملنى البغل التقليدى خلف بغلة (محمود) ، ورحنا نتوغَّل هذه المرة فى دروب أكثر تعقيدًا ، وعبر مناطق لم أعهدها من قبل ، ولفترة أطول من المعتاد ، ثم راح (محمود) يتسلَّق جبلاً وعرًا ، وهو يحمل حقيبتى الطبية ، وأنا أتسلَّق خلفه ، محاولاً استعادة كل مشاهد الأفلام القديمة ، التى تتحدَّث عن رياضة

تسلُّق الجبال ، إلا أن ذاكرتى السخيفة لم تسعفنى إلا بكل مشاهد السقوط الرهيبة من الجبال ..

ومن حسن الحظ أننا قد بلغنا مغارة كبيرة ، قبل أن تنتقل الذاكرة إلى العضلات نفسها ، وتتحوَّل إلى حقيقة مؤسفة ..

وبوساطة كلوب صغير ، سرنا ـ (محمود) وأنا ـ داخل تلك المغارة ، حتى لاح لنا ضوء كبير ، عبر منعطف قريب ، لم نكد

ندور فيه ، حتى وجدت نفسى داخل تجويف كبير ، يقف فيه كل رجال العصابة ، فيما عدا واحدًا ، يرقد أرضًا ، فى غيبوبة تامة ، وجلبابه غارق فى الدم ..

وبنفس الأسلوب الصارم الجاف ، قال (محمود) ، وهو يشير إلى الراقد :

ـ هيا .. قم بعملك .

كشفت جلباب الرجل ، وحدّقت فى موضع الإصابة بارتياع ، قبل أن أهتف :

ـ ولكن هذا مستحيل !

شعرت ، فور خروج العبارة من حلقى ، أننى قد نطقت كفرًا ، فقد توتّر الكل بشدة ، وتبادلوا نظرة غاضبة شرسة ، قبل أن يسألنى (محمود) :

ـ لماذا ؟!

قلت فى توتر :

ـ هذا الرجل مصاب برصاصة أسفل صرته ، وهذا يعنى أنها قد اخترقت الغشاء البريتونى ، وربما مزّقت المعدة أو الأمعاء ، أو المثانة ، وهو يحتاج إلى عملية جراحية كاملة ، تحت تعقيم كامل ، وبوساطة مخدّر عام ، والأدوات التى أحملها غير مناسبة ، وكذلك المكان .. لابد من نقل الرجل إلى المستشفى فورًا .. على الأقل ليحصل على بعض الدم ؛ لتعويض كل ما فقده .

تبادلوا نظرة صامتة أخرى ، ثم قال (محمود) فى خشونة :

ـ اطرح فكرة المستشفى هذه عن ذهنك .. أنت ستقوم بالعمل هنا .. وحدك .

هتفت مرة أخرى :

ـ مستحيل !

زمجر فى شراسة ، وتحسّس مدفعه الآلى فى مغزى واضع ، وهو يقول :

ـ قم بعملك يا دكتور .

كان أسخف وأصعب موقف واجهته ، فى حياتى كلها ، فرحت أتطلّع مرة أخرى إلى الرجل ، وأنا أقول فى عصبية :

ـ سيلقى حتفه .

أجابنى أحدهم فى غلظة :

ـ هذا قدره .

وقال آخر :

ـ إنه ميت على أى حال .

أما (محمود) فقال بخشونة أكثر :

ـ قم أنت بعملك ، واترك الباقى للّه (سبحانه وتعالى) .

وأسقط فى يدى تمامًا ..

إجراء عملية جراحية كهذه ، فى ظروف ميكروبية مائة فى المائة ، أشبه بعملية قتل عمد ، مع سبق الإصرار والترصُّد ، أما عدم إجرائها ، فهو حكم بالإعدام ..

باختصار ، كان الموقف يحتّم وجود قتيل ، أما الراقد على الأرض ، أو كاتب هذه السطور ..

فماذا تفعل لو كنت مكانى ؟!

بالضبط .. أنا أيضًا فعلت نفس ما قلته أنت ، وقرّرت إجراء العملية ، مهما كان الثمن ..

المهم أن أخرج من هذه المغارة بسلام ، كما فعل (على بابا) ، وليس على الأعناق ، كما حدث لأخيه (قاسم) ..

مع وضع حتمية موت الرجل فى الاعتبار ، جعلتهم ينزعون ثيابه ، وصبغت بطنه كلها بصبغة اليود ، دون أى مخدّر عام ، اعتمادًا على أنه فاقد الوعى بالفعل ، وراح عقلى يسترجع كل المعلومات التشريحية والطبية ، التى لم تكن ذاكرتى قد أهملتها بعد ، وأنا أمسك المشرط ، وأستعيذ باللّه (سبحانه وتعالى) من الشيطان الرجيم ، وأدعوه بالرحمة وأناشده العفو والعناية ، ثم بدأت العمل ..

كانت الرصاصة قد اخترقت المثانة بالفعل ، صانعة فى مقدّمتها ثقبًا مثاليًا ، متسعًا بما يكفى ، لدسّ الجفت الجراحى داخلها ، والبحث عن الرصاصة ..

ومن المؤكّد أننى لا أذكر الآن كيف ارتكبت هذه الحماقة الحتمية ، ولكن كل ما أذكره هو أننى لم أكن أحمل أية خيوط جراحية داخلية ، من تلك المصنوعة من أمعاء القطط المجفّفة ، والمعالجة بحيث تذوب وحدها داخل الجسد ، وإنما كان كل ما أحمله من الخيوط الجراحية الحريرية ، التى تستخدم خارجيًا فحسب ..

ولكن هذا لم يشغلنى حينذاك ، فالرجل ـ من وجهة النظر الطبية البحتة ـ ميت لا محالة ، ففيم سيؤلمه أو يؤذيه وجود خيوط غير صحيحة ، فى غشائه البريتونى أو مثانته ؟!

يكفيه أطنان الغبار والميكروبات ، التى ستملأ بطنه ، من المكان المعقّم الأنيق ، الذى أجرى فيه العملية ..

ولقد استغرق الأمرُ هذه المرة ما يقرب من ثلاث ساعات كاملة ، أظننى فقدت خلالها ثلاثة كيلوجرامات على الأقل ، ولكننى فى النهاية أغلقت الجرح ، وصبغته كله مرة أخرى بصبغة اليود ، ثم أحطت وسط الرجل بثلاث لفافات من الشاش ، مع ربطة كاملة من القطن ، قبل أن يسألنى (محمود) فى اهتمام :

ـ هل سيحيا ؟!

أجبته بمنتهى الثقة والحزم :

ـ كلاً بالطبع .

وجم الكل لجوابى ، وتبادلوا نظرة صامتة متوترة ، ثم قال (محمود) فى صرامة :

ـ هيا بنا .

اصطحبنى إلى الوحدة ، فى ضوء النهار ، ووصلناها قبل السابعة بقليل ، فأعطيت (محمود) ، من باب المجاملة ، بعض الأدوية والمضادات الحيوية ، مع وصف لكيفية استخدامها ، لو فتح المصاب عينيه ، ليقول وصيته الأخيرة ..

وأخذ (محمود) الأدوية ، وانصرف دون كلمة واحدة ، ودون أن يمنحنى شيئًا كعادته ، على نحو جعلنى أفهم الرسالة جيدًا ..

إنه ينتظر النتائج ..

ولم يغمض لى جفن ليومين تاليين ، وأنا أفكر فى هلع ..

الرجل سيموت حتمًا ، طبقًا لكل القواعد والأعراف العلمية والطبية ، فكيف سيكون موقف (محمود) ورجاله عندئذ ؟!

هل سيتفجَّر غضبهم ، ويطالبون بالثأر من قاتله ، الذى هو أنا طبعًا ، أم أنهم سيكتفون بطردى من البلدة كلها ؟!

شغلنى الأمر ، واستحوذ على تفكيرى تمامًا ، طوال ما يزيد على الأسبوع ، خاصة وأن (محمود) قد اختفى على نحو عجيب ، ولم يعد يظهر فى أى مكان ..

ثم رويدًا رويدًا ، راح توترى يخفت ، حتى تلاشى تمامًا ، بعد مرور أسبوعين كاملين ، باعتبار أن الرجل مات حتمًا خلال ساعات ، وليس هناك مبرِّر لانتظار الثأر طوال كل هذه الفترة ..

ولكن فجأة ، وفى الثانية والنصف صباحًا ، تفجَّرت كف (محمود) على باب مسكنى كالمعتاد ..

وفى هذه المرة كنت أرتجف حتمًا (من فرط الشجاعة) ، وأنا أسأله فى حذر :

ـ خيرًا .

أجابنى بلهجة جافة كعادته :

ـ نريدك معنا .

قلت فى توتر :

ـ فليكن .. سأرتدى ثيابى ، وأحضر حقيبتى ، و ...

قاطعنى بنفس اللهجة الجافة :

ـ لا داعى للحقيبة ..

وهنا سقط قلبى بين قدمىّ ..

لا داعى للحقيبة ؟!

ما الذى يعنيه هذا ؟!

إنهم لا يحتاجون إلى أى تدخل طبى .. فلماذا يريدوننى معهم ؟!

ارتديت ملابسى فى يأس واستسلام ، وركبت ذلك البغل ، الذى حسدته هذه المرة على انعدام شخصيته وانقياديته ، وهو يعدو فى سلبية خلف البغلة ، التى تقوده فى كل مرة ، والتى من المؤكد أنها ستقتنعه مستقبلاً بالأكل من شجرة التبن ، حتى يُطرد من جنة البغال (أعتقد أنها قارة أستراليا ، تبعًا لما نصف به البغل دومًا) ..

وفى تلك المرة أيضًا رحنا نسير عبر الطرق الصعبة ، والدروب الوعرة المعقدة ، لفترات طويلة ، قبل أن نصل إلى ذلك الجبل ، ونتسلقه ، ثم ندخل المغارة ..

كان الكل يجلس ، فى أضواء الكلوبات ، وما إن رأونا حتى نهضوا لاستقبالنا ، وصافحونى جميعهم ، ووجوههم تحمل ابتسامة ، بدت لى ـ وقتها ـ أشبه بابتسامة الذئب ، وهو يستقبل الحمل العبيط ، الذى جاء بقدميه إلى وكره ..

وجلست بينهم صامتًا ، وقد خلت عروقى من كل قطرة دم ، وزاغت عيناى كالمخبولين ، وهما تحدقان فى المدافع الآلية ، التى ستنطلق كلها بعد قليل فى صدرى ..

ثم فجأة ، ظهرت النسوة ، وهن يحملن صوانى الطعام ..

وهنا ، هوى قلبى بين قدمىّ ..

إننى أعرف هذا الأسلوب جيّدًا ..

أسلوب الوجبة الفاخرة ، التى تُقدَّم للمحكوم عليه بالإعدام ، قبل تنفيذ الحكم مباشرة ..

والوجبة التى أمامى ، كانت تحوى بعض الدجاج ، والبط ، والحمام المحشو ، إلى جانب (هُبر) اللحم ، والويكة والملوخية بالطبع ..

وما إن دعانى (محمود) لتناول الطعام ، حتى قفز لسانى من حلقى الجاف ، وأنا ألقى سؤالاً واحدًا ، لتحديد مصيرى النهائى :

ـ كيف حال مريضنا إذن ؟!

ابتسم الكل ، وأحدهم يقول :

ـ فى خير حال .. أنت رجل بركة .

هتفت بكل دهشة الدنيا :

ـ هل عاش ؟!

قهقهوا ضاحكين ، قبل أن يقول أحدهم :

ـ سلامة الرؤية يا دكتور .. إنه يجلس إلى جوارك مباشرة .

وهنا تحوَّلت دهشتى ، ومشاعرى كلها ، إلى ذهول ..

ذهول بلا حدود ، وأنا أحدِّق فى وجه الرجل الجالس إلى جوارى ، وكأنما أحدِّق فى وجه شبح ..

إنه هو !!

كيف لم أتعرَّفه فى البداية ؟!

إنه نفس المصاب ، الذى أجريت له عملية ، تخالف كل القواعد الطبية المعروفة ، من أيام (حورس) ..

وهو حى ، يرزق .. ويبتسم أيضًا !!

وبكل ذهولى ، هتفت به :

ـ أهو أنت ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، بابتسامة تلتهم وجهه كله ، وهو يقول :

ـ البركة فيك ، بعد اللّه (سبحانه وتعالى) :

سألته ذاهلاً مبهوتًا :

ـ أأنت على ما يرام ؟! أعنى هل تتبوَّل بصورة عادية ، ولا تعانى من آلام مبرحة ، أو مغص مستمر ، أو ...

قاطعنى بنفس الابتسامة البلهاء :

ـ البركة فيك ..

كان المفترض أن يزيل هذا كل توتري وهلعي ، إلا أن مشاعري كلها كانت تلتهب بفضول ذاهل ، أمام تلك المعجزة الطبية ، على أي مقياس ..

أمور كثيرة كان ينبغي أن تحدث ، عندما أجريت العملية للرجل ، ولكنها لم تُنفذ إطلاقًا ..

خيوط الجراحة الداخلية ..

القسطرة البولية ..

التعقيم الكامل ..

الأدوات المناسبة ..

بل والمدهش أنه لم يتناول الأدوية والمضادات الحيوية أيضًا ..

ولم يغيِّر الشاش والقطن مرة واحدة ..

وعلى الرغم من كل هذا ، كان جرحه الخارجي مندملاً نظيفًا ، سقطت معظم غرزه من تلقاء نفسها ، على نحو لا يحدث حتى للمرضى الموصى عليهم ، في أفضل المستشفيات الاستثمارية الآن ..

وهذا يؤكِّد أن هؤلاء البسطاء دائمًا على حق ..

الشفاء من الله (سبحانه وتعالى) وحده ..

ودون أية أسباب ، سوى رغبته (عزَّ وجلَّ) ..

المهم أنني ، وأمام هذه المعجزة ، استعدت مرحي وحيويتي ، وأقبلت على الطعام بشراهة كبيرة ، حتى إنني أحببت الويكة والملوخية (تصوَّروا) ..

وعندما أعادني (محمود) إلى الوحدة في الصباح ، منحني رزمة أوراق نقدية ضخمة ، مع ابتسامة عريضة جدًا ، وهو يغمز بعينه ، قائلاً :

- (حجاج) أخبرني أنك لا تتعاطى المخدرات ، لذا فهي من نصيبه هو هذه المرة ..

يا للخبيث (حجاج) هذا ؟!

لا يضيع فرصة للرِّبح والاستفادة قط ..

ولكن هذا لا يهم ، فالمهم أنني قد خرجت من هذه الأزمة بسلام ، وأصبحت صديقًا مقرَّبًا للأخ (محمود) ، الذي أسبغ عليَّ حمايته ورعايته ، طوال فترة عملي في الصعيد بعدها ..

ولقد عرف الكل هذا بالطبع ، وأدركوا أنني أصبحت أختلف ، عن كل طبيب عمل في هذه الوحدة من قبل ..

ولكن حتى هذه الحماية البريطانية ، التي أسبغها عليَّ صديقي اللص ، لم تكن تعني أن الحياة في الصعيد الجوَّاني قد أصبحت قطعة من الجنة ..

فما زالت هناك مشكلات أخرى ، ومخلوقات أخرى ، لا يملك أى بشرى السيطرة عليها أو منعها هناك ..

مخلوقات صغيرة ..

وقاتلة ..

وفى هذا الشأن كانت لى تجارب عديدة ..

ورهيبة .

★ ★ ★

(البقية فى الكتاب القادم بإذن الله)

كوكتيل ٢٠٠٠
روايات مصرية للجيب
قصة العدد
قصة الدم

١ ـ الجريمة ..

دوت أبواق سيارات الشرطة والإسعاف على نحو مزعج ، وهى تتوقّف أمام ذلك الفندق الفاخر ، من فنادق الخمسة نجوم ، والمطلّ على نيل (القاهرة) ، واندفع مدير الفندق يستقبل رجال الشرطة والأطباء ، فى توتر بالغ ، وهو يقول :

ـ رويدكم أيها السادة .. اخفضوا هذه الأصوات باللّه عليكم .. إنكم تصيبون النزلاء بالذعر والاضطراب .. أرجوكم .

أشار الرائد (صفوت) إلى قادة سيارات الشرطة والإسعاف ، لخفض الأبواق أو إيقافها ، وهو يسأل المدير بلهجة حازمة ، أصبحت جزءًا من تكوينه وشخصيته ، بعد سنوات العمل الطويلة ، فى قسم المباحث الجنائية :

ـ أين القتيل ؟!

أشار المدير إلى الداخل فى توتر ، قائلاً :

ـ هنا .. لقد نقلناه إلى ..

قاطعه (صفوت) فى حدة غاضبة :

ـ نقلتموه ؟! هل جننتم يا رجل ؟! إنكم تفسدون القضية كلها بحماقتكم هذه ! كيف تقومون بنقل الجثة ، قبل قيامنا بالمعاينة الأوّلية ؟!

توتر المدير أكثر ، وهو يجفّف عرقه ، ويلوّح بيده ، قائلاً :

ـ لقد أطلق عليه القاتل النار ، فى المقهى الرئيسى ، فى منتصف المكان بالضبط ، ونسف رأسه على نحو بشع ، وكان من المستحيل أن نترك الجثة هكذا ، خاصةً وأن ..

قاطعه (صفوت) فى حدة :

ـ ولو ..

كان يعبر معه بوّابة الفندق الإليكترونية ، التى انطلقت تصرخ فى عنف ، معلنة اعتراضها على الأسلحة ، التى تعبرها ، إلا أن (صفوت) ورجاله تجاهلوا صراخها تمامًا ، وهم يتجهون نحو المقهى الرئيسى ، حيث انهمك بعض عمال الفندق فى تنظيف مائدة فى منتصفها ، على نحو جعل (صفوت) يقول فى عصبية :

ـ ما الذى يفعلونه بالضبط ؟!

ارتبك المدير بشدة ، وهو يجيب :

ـ الدماء كانت تغرق كل شىء ، و ..

قاطعه فى غضب :

ـ سألقى القبض عليك يا رجل ، بتهمة إخفاء الأدلّة وإتلافها .

امتقع وجه المدير ، وهو يهتف :

ـ رباه ! إننى لم أقصد هذا قط ، ولم ..

قاطعه بإشارة صارمة من يده ، وهو يشير إلى رجاله ، الذين اندفعوا يبعدون عمال النظافة ، ويحيطون بالمائدة ، فى حين سأل هو المدير فى صرامة :

ـ وأين الجثة ؟!

أشار الرجل فى شحوب إلى حجرة فى نهاية القاعة ، فاندفع (صفوت) نحوها ، وهو يغمغم فى غضب :

ـ كيف يمكننا أن نعمل ، وسط كل هذا الكم من الحماقة ؟! يفسدون كل شىء ، ثم يطالبوننا بنتائج عاجلة ، و ..

كان يغمغم بعبارته ، وهو يفتح باب الحجرة ، ولكنه لم يكد يفعل ، حتى اختنقت الكلمات فى حلقه ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وسرت فى جسده قشعريرة عنيفة ، وهو يحدّق فى الجثة ، التى تم نقلها بمقعدها ، الذى لقيت مصرعها فوقه ، إلى تلك الحجرة ..

كانت جثة رجل يرتدى حلة غالية الثمن ، ورباط عنق زاهى الألوان ، وحذاء إيطاليًا فاخرًا ، وساعة ذهبية ، و ..

وهذا كل ما يمكن ملاحظته بالنسبة إليه ..

فلم يكن له وجه .. أو رأس ..

لم يكن قد تبقّى من رأسه سوى جزء يسير من مؤخرة الجمجمة ، يتصل ببواقى العنق ، أما فيما عدا هذا ، فقد تم نسف الرأس تمامًا ..

وعلى الرغم من أن (صفوت) قد شاهد عشرات من حالات القتل العنيفة ، بحكم عمله فى منطقة مشتعلة الأحداث ، فى أعماق الصعيد ، فور تخرُّجه ، إلاأنها كانت المرة الأولى ، فى حياته كلها ، التى شاهد فيها مشهدًا بهذه البشاعة ..

لذا ، فقد تراجع بحركة حادة ، جعلت المدير يجفّف عرقه ، قائلاً فى عصبية :

ـ كان من المحتم أن نبعده عن الأنظار ، فسمعة الفندق لا ..

قاطعه (صفوت) فى توتر شديد :

ـ اصمت .

ابتلع المدير كلماته ، وتراجع خارج الحجرة ، وكأنما ينأى بنفسه عن رؤية ذلك المشهد ، الذى لن يفارق خياله أبدًا ، فى حين ازدرد (صفوت) لعابه فى صعوبة ، وهو يحدّق فى الجثة ، متسائلاً : تُرى أى سلاح هذا ، الذى يمكن أن ينسف جمجمة كاملة ، على هذا النحو ؟!

لقد شاهد ، إبان عمله فى الصعيد ، رجلاً أصيب بخمس رصاصات فى جمجمته ، من مسافة ثلاثة أمتار ، وعلى الرغم من هذا فقد بقى رأسه فى مكانه ..

أما هذا ، فقد تحطّمت جمجمته تمامًا ..

بل انسحقت سحقًا ..

فأى سلاح فعل بها هذا ؟!

أى سلاح ؟!

وفى عصبية بالغة ، سأل مدير الفندق :

ـ مع كل نظام الأمن والبوّابات الإليكترونية ، كيف عبر القاتل بسلاحه إلي الداخل .

هزّ المدير رأسه فى توتر ، مجيبًا :

ـ لا أحد يدرى .. البوّابات لم تطلق رنينها ، ونحن لم نسمع حتى دوى الرصاصة .. لقد لمحنا وهجها فحسب ، ثم رأينا الدماء تتفجّر ، لتُغرق كل شىء ، وتترك ذلك المسكين خلفها هكذا .

قال (صفوت) فى عصبية :

ـ لم تسمعوا دوى الرصاصة ؟! الذى فعل هذا استخدم حتمًا مدفعًا يا رجل ، وليس مجرّد رصاصة .

قال المدير مبهوتًا :

وكيف يمكن أن يُخفى مدفعًا ؟!

صاح (صفوت) بعصبية :

ـ أخبرنى أنت .

قال المدير فى حدة :

ـ إنها مهنتك أنت .. أنا رجل سياحة وفندقة فحسب .

هتف (صفوت) :

ـ وأنت المسئول الأوّل عن هذا المكان أيضًا .

عاد المدير يجفّف عرقه ، ويهزّ رأسه ، قائلاً :

ـ لا أحد هنا يدرى كيف حدث هذا ! البوّابات الإليكترونية تعمل بكفاءة ، والرجل لم يكن يحمل حتى حقيبة ، عندما عبرها ، واتجه نحو القتيل مباشرة ، ونسف رأسه .

انعقد حاجبا (صفوت) بشدة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ اسمع يا رجل .. أنا ضابط شرطة ، منذ ما يقرب من اثنى عشر عامًا ، وخبرتى تؤكّد لى أن نتيجة كهذه لا يمكن أن تحدث ، إلا من سلاح ضخم ، فلا تقل لى إن أحدًا لم يره يحمله .

قال المدير فى عصبية :

وهل تعتقد أننا كنا سنتركه يفعل ما فعله بمنتهى البساطة ، لوأننا رأينا سلاحه ؟!

كان الجواب منطقيًا إلى حد مستفز ، حتى إن (صفوت) قد عقد حاجبيه فى توتر ، وهو يسأله فى صرامة :

ـ وماذا بعد أن فعل ما فعل ؟! لماذا تركتموه يمضى فى سبيله ؟!

عضّ الرجل شفتيه ، قائلاً :

ـ ومن قال : إننا تركناه ؟!

سأله (صفوت) فى توتر :

ـ أين هو إذن ؟!

قلب الرجل كفيه فى مرارة ، وهو يجيب :

ـ للوهلة الأولى ، لم نفهم ما حدث ، خاصةً وأننا لم نسمع دوى رصاصة ، كما سبق أن أخبرتك ، ولكنه استدار يغادر المكان فى هدوء ، على الرغم من صرخات الهلع والرعب والذعر ، فانقضّ عليه ستة من أقوى حراس الأمن عندنا ، و ... ، و ...

قال (صفوت) فى لهفة عصبية :

ـ وماذا ؟!

قلب الرجل كفيه مرة أخرى ، قائلاً :

ـ ولكنه أوقفهم جميعًا بضربة واحدة ، وغادر المكان بكل هدوء ، و ..

قاطعه (صفوت) بصيحة مستنكرة :

ـ بضربة واحدة ؟! أى نوع من الرجال تستخدمون للحراسة يا رجل ؟! أبطال لعبة تنس الطاولة ؟!

قال المدير فى غضب عصبى :

ـ رجالنا هم أفضل أطقم الحراسة فى (مصر) يا سيادة الرائد ، ولكن من الواضح أن ذلك الرجل كان قويًا كالثور ، أو أنه يستخدم شيئًا نجهله ، فقد أخبرنى الرجال أنهم شعروا وكأنهم قد تلقّوا صاعقة فى صدورهم ، ألقتهم بعيدًا عنه بمنتهى العنف .

هتف (صفوت) فى عصبية :

ـ هراء .

قال المدير فى حدة :

ـ ليس هراءً أيها الرائد .. هذا ما وصفه الرجال بالضبط ؟

قال (صفوت) فى غلظة :

ـ مجرَّد محاولة سخيفة لتبرير فشل أكثر سخافة يا رجل

ثم شدّ قامته ، مستطردًا فى صرامة :

ـ وعلى أيّة حال ، سأتولّى التحقيق فى هذه الجريمة بنفسى .

لم يكد ينطق عبارته ، حتى سمع دقات على باب الحجرة ، فالتفت إليه ، قائلاً فى حدة :

ـ من خلف الباب ؟

سمع صوتًا يتنحنح فى حرج ، قبل أن يقول :

ـ هل يمكننا رفع الجثة الآن ؟! نحن رجال الإسعاف ، ورجال الأدلة الجنائية هنا ، ويرغبون فى بدء الفحص .

قال (صفوت) فى خشونة لم يتعمّدها :

ـ دعهم يأتون .

مضت لحظات من الصمت والسكون ، قبل أن يدفع أحدهم الباب ، ويدلف إلى الحجرة ، و ..

« رباه ! ما هذا بالضبط ؟! »

انطلقت شهقات مذعورة ، من حلوق الرجال ، وهم يحدقون فى المشهد البشع ، فهتف بهم (صفوت) فى غضب :

ـ ماذا دهاكم ؟! ألم تروا جثة قتيل من قبل ؟!

هتف أحدهم بصوت مرتجف :

ـ ليس بهذه الصورة .

أجابه فى حدة :

ـ حاولوا اعتياد المشهد إذن ، وارفعوا الجثة ، وانقلوها إلى الطب الشرعى ، فور انتهاء رجال الأدلة الجنائية من عملهم .

ثم استدار إلى المدير ، متابعًا فى صرامة :

ـ وأنت .. مر رجالك بجمع كل نقطة دم ، أزالوها من مسرح الجريمة ، وكل ذرة تراب أيضًا .. حتى الأدوات والقطع ، التى استخدموها فى عملهم الأخرق ، أريدها فى المعمل الجنائى ، مع قائمة بأسماء كل العاملين فى الفندق ، وكل رجل أمن وحراسة ، بالإضافة إلى فحص شامل للبوابات الإليكترونية .

وانطلقت من أعمق أعماق صدره زفرة ملتهبة ، مضيفًا فى عصبية :

ـ إنها جريمة معقَّدة ، ولا أريدها أن تصبح نقطة سوداء فى ملف خدمتى .

لم يدر ، وهو ينطق عبارته الأخيرة ، أن هذه الجريمة بالذات قد تنهى ملف خدمته كله ..

بل وقد تصبح نقطة تحوّل رهيبة فى حياته كلها ..

نقطة بلا عودة ..

على الإطلاق ..

★ ★ ★

زفر الدكتور (أحمد) الطبيب الشرعى الشاب ، فى ضجر شديد ، وهو يوقف سيّارته الصغيرة ، أمام مشرحة (زينهم) ، ويغادرها مغمغمًا :

ـ كان ينبغى أن أستمع إلى نصيحة جدى ، عندما قال : إن كلية الزراعة أكثر فائدة من كلية الطب .

زفر مرة أخرى ، وهو يدلف إلى مكتبه ، فهبّ مساعده من مقعده ، قائلاً :

ـ دكتور (أحمد) ! حمدًا لله على أنك قد وصلت .. المباحث الجنائية اتصلت خمس مرات حتى الآن ، ووكيل النيابة يطلب سرعة فحص هذه الجثة ، وعمل التقرير اللازم .

هتف الدكتور (أحمد) فى حنق ، وهو يرتدى معطفه وقفازى التشريح المطاطين :

ـ ماذا أصابهم جميعًا ؟! إنها مجرّد جريمة قتل ، وليست

اغتيالاً سياسيًا ، حتى يصاب الجميع بالهلع والتوتر إلى هذا الحد .. ثم إننى قد أتيت فور اتصالك بى ، ولكن الطرق مزدحمة للغاية ، فى ساعة الذروة هذه ، فماذا يمكننى أن أفعل ؟!

واتجه بخطوات عصبية إلى قاعة التشريح ، متابعًا فى غضب :

ـ لماذا لم تتصل بالدكتور (إلهام) أو الدكتور (أبو سنة) ؟! كلاهما يقيم فى مكان أقرب منى على الأقل ..

غمغم مساعده فى توتر :

ـ الواقع أن ..

قاطعه فى حدة :

ـ فليكن .. لا تبحث عن أعذار ومبرّرات .. أنا أفهم هذا .

ومطّ شفتيه ، متمتمًا فى سخط :

ـ ولقد اعتدته أيضًا .

توقّف لحظة ، وهو يتطلّع إلى الجثة ، الراقدة على منضدة الفحص الرخامية ، بكامل ملابسها ، وتمتم فى عصبية :

ـ رباه ! من فعل به هذا ؟!

هزّ المساعد رأسه ، مغمغمًا :

ـ لست أدرى .. ضابط المباحث يقول ..

قاطعه (أحمد) مرة أخرى :

ـ لا بأس .. لا بأس .. أعطنى التقرير الأولى ، وأحضر آلـة التصوير ، لنقوم بعملنا .

انطلق مساعده لتنفيذ الأوامر ، فى حين جذب هو مقعدًا ، وجلس إلى جوار الجثة ، وراح يتطلَّع إليها فى حيرة ، متسائلاً عن السلاح القوى ، الذى يمكن أن ينسف رأس رجل على هذا النحو ، ثم لم يلبث أن طرح هذا السؤال عن رأسه مؤقتًا ، وهو يميل لفحص ثياب الجثة فى اهتمام ..

كان القتيل يرتدى حلة فاخرة ، غالية الثمن للغاية ، وخاوية تمامًا ، بعد أن قام رجال المباحث الجنائية بتجريدها من كل ما تحمله ، وكانت أصابعه طويلة إلى حد مثير للاهتمام ، حتى إن (أحمد) قد رجَّح أنه عازف بيانو أو قيثارة ..

القميص أيضًا كان من نوع فاخر باهظ الثمن ، ولكن نسيجه بدا غريبًا للغاية ، إلى الحد الذى دفع (أحمد) إلى قطع جزء منه ، ووضعه فى كيس خاص ، لفحصه فيما بعد ، ثم التقط محقنًا صغيرًا ، وغرسه فى أحد شرايين المعصم الأيمن ، وحصل على ما يقرب من عشرين سنتيمترًا فى الدم لفحصها ، و ..

وفجأة ، توقَّفت كل أفكاره ، وهو يتطلَّع إلى عينة الدم ، التى احتوتها قنينة المعمل الخاصة ..

شىء ما فيها جذب جزءًا من انتباهه ..

أو من وعيه الباطن على الأقل ..

ربما هو لونه الأحمر القانى ، الذى بدا أكثر كثافة من المعتاد ..

كان داكنًا ، أقرب إلى اللون البنفسجى ، منه إلى الأحمر بكل درجاته ، على الرغم من أن درجة سيولته لم تكن أكبر من المعتاد ، أو ...

ولكن مهلاً ..

كيف يمكن أن يظلّ الدم سائلاً حيويًا ، بعد ما يقرب من ثلاث ساعات على الوفاة ؟!

كيف لم يحدث ذلك التجلُّط المعتاد ، داخل الشرايين الميتة ؟!

بل وكيف توقَّف النزيف ، من الرأس المحطَّم ، لو أن الدم مازال نشيطًا على هذا النحو ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

« هل ألتقط الصور الآن ؟! »

انتفض جسده فى عنف ، عندما اخترق سؤال مساعده أذنيه ، وهو منهمك فى التطلع إلى عينة الدم ، فأفلتت القنينة من يده ، وانزلقت نحو الأرضية الرخامية ، فانتزع نفسه من مقعده ، ووثب يلتقطها فى الهواء بلهفة زائدة ، وهو يهتف فى حدة :

ـ ماذا فعلت ؟!

تراجع مساعده فى دهشة ، وحدَّق فى قنينة الدم ، التى استقرَّت فى راحة الدكتور (أحمد) ، الذى سقط جسده كله أرضًا ، وهو يواصل فى حنق :

ـ لقد أفزعتنى .

تمتم الرجل فى ارتباك :

ـ لم أقصد هذا يا دكتور (أحمد) .. لقد تصوَّرت أن ..

قاطعه الدكتور (أحمد) بإشارة من يده ، وهو ينهض قائلاً :

ـ لا بأس .. لا بأس .. التقط كل الصور اللازمة ، حتى أطالع التقرير المبدئى ، ثم أحمل عينة الدم هذه إلى المعمل فورًا .

غمغم الرجل متوترًا ، وهو يبدأ فى التقاط الصور بالفعل :

ـ بالتأكيد يا دكتور .. بالتأكيد .

وضع (أحمد) قنينة الدم على سطح دولاب الأدوات فى حرص ، وألصق عليها ورقة صغيرة بالبيانات المطلوبة ، ثم التقط التقرير المبدئى ، وجلس يطالعه فى اهتمام ، ومساعده يلتقط مجموعة من الصور للجثة ، من كافة الجوانب ..

كان التقرير يصف حالة الجثة ، عند وصول رجال الشرطة إلى المكان ، بمنتهى الدقة ، وبكل التفاصيل اللازمة ، و ..

ولكن مهلاً ..

هناك خطأ ما فى التقرير ..

خطأ بخصوص الرأس بالتحديد ..

وفى اهتمام ، نهض يلقى نظرة على الجثة ، قبل أن يقول فى سخط :

ـ سأظلّ أصرّ دومًا على أن يكون لدينا متخصِّص ، لفحص أية جثة ، فى مسرح الجريمة ، فالأطباء والمسعفون التقليديون لا يجيدون كتابة التقارير الرسمية فى هذا الشأن .

سأله مساعده فى اهتمام ، وهو يعيد آلة التصوير إلى حقيبتها :

ـ لماذا ؟!

أشار (أحمد) إلى الرأس ، قائلاً فى حدة :

ـ التقرير يقول : إن الجثة بدون رأس تقريبًا ، وها أنتذا ترى بنفسك أن قاعدة الجمجمة موجودة بالكامل ، وكذلك الفك السفلى ، حتى قاعدة الأسنان ، و ...

« يا إلهى !! »

بتر مساعده حديثه بشهقته هذه ، فانعقد حاجباه ، وهو يسأله فى عصبية :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

كان مساعده يحدّق فى الجثة بذعر ، وهو يهتف :

ـ كيف لم أنتبه إلى هذا من اللحظة الأولى ؟! رباه !! وأنا أتساءل ما الشىء المختلف فى الجثة ..

قال (أحمد) بعصبية أكثر :

ـ ماذا تعنى يا رجل ؟!

ارتجفت سبّابة الرجل مع صوته ، وهو يشير إلى الجثة ، قائلاً :

ـ هذه الـ .. الجثة ، كانت بدون رأس بالفعل ، عندما أتوا بها إلى هنا .

حدّق (أحمد) فى وجهه لحظة بذهول ، ثم نقل بصره إلى الجثة بحركة حادة ، قبل أن يعود إلى الرجل ، هاتفًا :

ـ أى قول أحمق هذا ؟! بل أى سخف ؟! هل جننت يا رجل ، أم أن بصرك قد أصيب بمرض هستيرى نادر ؟!

هتف الرجل فى عصبية شديدة :

ـ أقسم إنها لم ..

قاطعه (أحمد) فى غضب :

ـ حذار أن تكذب .

هتف الرجل فى حدة :

ـ أكذب ؟! ولماذا أكذب ؟! هذه الجثة كانت بلا رأس بالفعل ، عندما أحضروها إلى هنا .

مال (أحمد) نحوه ، وهو يقول فى صرامة غاضبة :

ـ ثم ماذا ؟! هل نما الجزء الآخر هنا ؟!

حدّق الرجل فى الجثة مذعورًا ، وهو يغمغم :

ـ ربما .

تراجع (أحمد) ، هاتفًا فى حنق :

ـ ربما ؟! ربما ماذا أيها المأفون ؟! هل رأيت فى حياتك كلها جثة تنمو خلاياها ، بعد ساعات من الوفاة ؟!

هزّ الرجل رأسه نفيًا فى بطء ، وهو يواصل التحديق فى الجثة بذعر مذهول ، قبل أن يتراجع فى بطء ، متمتمًا :

ـ لست أدرى .. لست أدرى !

قالها ، ثم اختطف قنينة الدم ، وانطلق يعدو خارج المكان ، هاتفًا :

ـ سأذهب بالعينة إلى المعمل فورًا .

تابعه (أحمد) ببصره فى دهشة مستنكرة ، ثم عاد يتطلّع إلى الجثة ، ويهزّ رأسه ، قائلاً فى عصبية :

ـ يبدو أنه قد جنّ بالفعل .

نهض من مقعده ، وضغط زر جهاز التسجيل ، وراح يجرّد الجثة من ثيابها ، وهو يصف ما يفعله بمنتهى الدقة ، ثم لم يلبث أن التقط مشرطه ، وهو يقول :

ـ والآن ، بعد الفحص الظاهرى ، تبدأ عملية التشريح ، لفحص الأنسجة والإصابات الداخلية .

وبحزم واثق ، راح يشقّ جدار البطن ، بفتحة طويلة ، تبدأ من أسفل عظمة القصّ مباشرة ، وحتى الصرة ، ثم أزاح طبقة الجلد ، والدهون الداخلية السميكة ، و ...

وانتفض جسده كله فى عنف ..

واتسعت عيناه عن آخرهما ، حتى كادتا تبتلعان وجهه كله ، وهو يحدّق فى أحشاء الجثة الداخلية ، مغمغمًا :

ـ رباه ! مستحيل أن يكون هذا حقيقيًا ! مستحيل !

قالها بكل ذعر ودهشة الدنيا ، لأن ما رآه أمامه ، داخل تلك الجثة كان شيئًا مذهلاً !!

مذهلاً بحق !

★ ★ ★

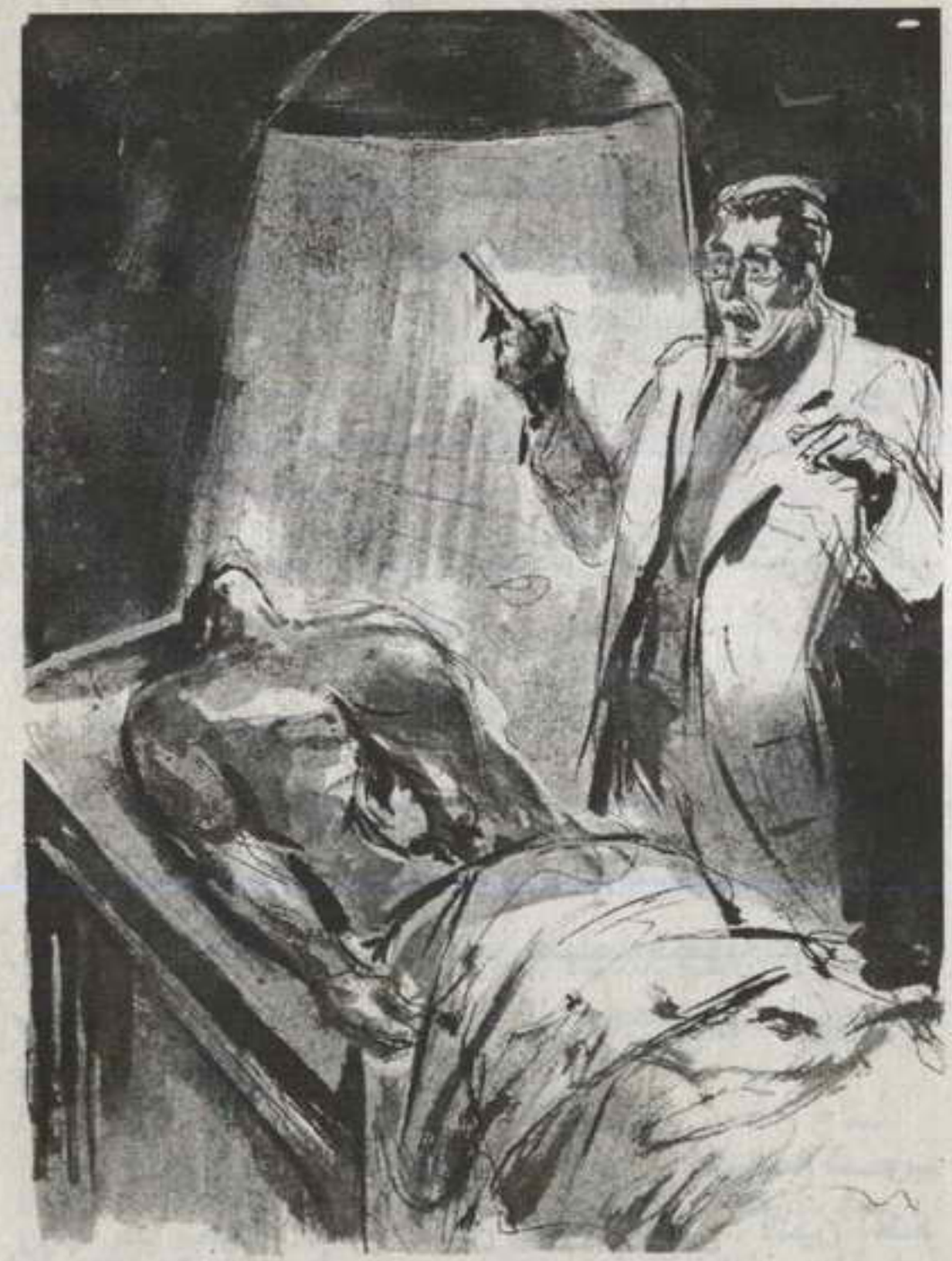

واتسعت عيناه عن آخرهما ، حتى كادتا تبتلعان وجهه كله ، وهو يحدّق فى أحشاء الجثة الداخلية ..

٢ ـ فوق مستوى البشر ..

قبل حتى أن تتوقَّف سيارة الشرطة ، أمام مشرحة (زينهم) ، كان الرائد (صفوت) يثب خارجها ، وهو يهتف برجاله فى صرامة :

ـ أحيطوا بالمكان .. لا أحد يدخل أو يخرج ، إلا بأوامر مباشرة منى .. هل تفهمون ؟

أسرع رجاله ينفذون الأمر ، ويحيطون بمبنى المشرحة ، فى حين اندفع هو داخلها ، وهو يسأل فى صرامة :

ـ أين مكتب الدكتور (أحمد شريف) ؟!

قاده حارس المكان إلى مكتب الدكتور (أحمد) ، فاندفع إليه ، قائلاً فى توتر :

ـ الرائد (صفوت شاهين) .. من المباحث الجنائية بالمديرية .. ماذا حدث هنا بالضبط ؟! ولماذا طلبت حضورى على وجه السرعة ؟!

كان الدكتور (أحمد) يجلس خلف مكتبه ، وقد بلغ شحوب وجهه حدًا مخيفًا ، جعله ينافس وجوه الموتى ، الذين اعتاد المكان التعامل معهم ، وهو يلوِّح بيده ، قائلاً بصوت أكثر شحوبًا من وجهه :

ـ ذلك الرجل الذى أحضرتموه ..

قال (صفوت) فى صرامة :

ـ القتيل ؟!

هزَّ (أحمد) رأسه بحركة حادة ، وهو يقول :

ـ إنه ليس قتيلاً .

سقط فك (صفوت) الأسفل ، وهو يهتف بكل استنكار الدنيا :

ـ ليس ماذا ؟!

كررَّ (أحمد) فى عصبية شديدة :

ـ ليس قتيلاً .

انعقد حاجبا (صفوت) ، وهو يقول فى غضب :

ـ أى قول هذا بالضبط ؟! لو أنه ليس قتيلاً ، فأية صفة تحب أن نطلقها ، على جثة فقدت رأسها .

صاح (أحمد) فى حدة :

ـ لست أدرى .. إنها حالة لم أر ، ولم ير الطب كله مثيلاً لها من قبل ، ولكن ذلك الذى أحضرتموه لم يكن قد لقى مصرعه بعد ، عندما بدأت فى تشريحه بالفعل .

حدّق (صفوت) فى وجهه بذهول غاضب مستهجن ، قبل أن يهتف بغضب بلغ مداه :

ـ دكتور (أحمد) .. هل تعاطيت بعض المواد المخدّرة أم ماذا ؟!

هزّ (أحمد) رأسه مرة أخرى فى حدة ، قائلاً بعصبية زائدة :

ـ كلاّ .. لم أتعاط أية مواد ، سواء مخدّرة ، أو غير مخدّرة ، وما أقوله لك ، على الرغم من استحالته الطبية ، رأى علمىٌ محض .

ثم مال بجسده كله نحوه ، مستطردًا :

ـ لقد فحصت الرجل بنفسى ، وعندما بقرت بطنه ، كانت أجهزته كلها تعمل ، على النحو نفسه ، الذى تعمل به فى قلب رجل حى .. لم تكن أجهزة متوقّفة أو تالفة .. هل يمكنك أن تستوعب هذا ؟!

وتراجع بحركة حادة ، وهو يلوّح بذراعه ، صائحًا :

ـ المعدة لم تكن قد توقّفت عن الهضم بعد .. هل تصدّق ؟!

حدّق (صفوت) فى وجهه بذهول بالغ ، قبل أن يهزّ رأسه فى قوة ، وعناد ، هاتفًا :

ـ مستحيل !

ثم ضرب سطح المكتب براحته فى قوة ، مضيفًا :

ـ ذلك الرجل لقى مصرعه ، فى مقهى فندق شهير ، وأمام عشرات النزلاء ، وتم نقله إلى هنا بدون رأس ، فكيف يمكن أن تقول بعدها إن ..

قاطعه (أحمد) بمنتهى الحدة :

ـ هذه النقطة أيضًا غير صحيحة .

انعقد حاجبا (صفوت) أكثر ، وهو يتساءل فى توتر :

ـ أية نقطة ؟!

أجابه (أحمد) بنفس الحدة :

ـ مسألة الرأس هذه .. الجثة التى جئتم بها إلى هنا ، لها نصف رأس ، وليست بدون رأس تمامًا كما تدّعون .

اتسعت عينا (صفوت) عن آخرهما ، وهو يقول :

ـ بنصف ماذا ؟!

ثم هب واقفًا ، ومال نحو الدكتور (أحمد) فى حدة ، قائلاً :

ـ قل لى أيها الطبيب الشرعى : أأنت واثق من أننا نتحدّث عن الجثة نفسها ؟!

زفر (أحمد) فى عصبية ، قائلاً :

ـ من المصادفات العجيبة أنه ليس لدينا سواها الليلة .

ثم نهض بدوره من مقعده ، واندفع نحو الباب ، مستطردًا :

ـ ويمكنك أن تراها بنفسك .

عقد (صفوت) حاجبيه فى عصبية ، وهو يندفع خلف (أحمد) ، الذى قطع ممر المكان بخطوات سريعة واسعة ، حتى بلغ قاعة التشريح ، فدفع بابها ، قائلاً :

ـ لقد أعدت خياطة جدار المعدة ، و ...

بتر عبارته دفعة واحدة ، وارتدّ بحركة حادة عنيفة ، مطلقًا شهقة ذعر ، جعلت (صفوت) يحثّ الخطى نحوه ، هاتفًا :

ـ ماذا هناك ؟!

انتهت كلماته عند باب القاعة بالضبط ، فحدّق بدوره فى الجثة ، قبل أن تتسع عيناه عن آخرهما ، ويغمغم فى ذهول :

ـ مستحيل !

فالجثة الراقدة على منضدة الفحص الرخامية ، فى منتصف القاعة ، لم تكن عديمة الرأس بالفعل ..

بل كانت تمتلك نصف رأس ..

نصف يمتدّ من العنق ..

وحتى منتصف الأنف ..

بالتحديد ..

★ ★ ★

ألقى الدكتور (حسن وهبى) نظرة مرهقة على ساعته ، التى أشارت عقاربها إلى التاسعة مساءً ، وهو يخلع معطفه الطبى ، قائلاً لزميله فى إجهاد واضح :

ـ يا له من يوم شاق ! عمليتان كبريان وثلاث جراحات صغرى .. من النادر أن يمر بنا يوم كهذا يا رجل .

ابتسم زميله ابتسامة مرهقة ، وهو يقول :

ـ أعتقد أن أيامنا كلها كذلك ، ولكننا اعتدناها ، واعتدنا نسياتها كلها ، فور عودتنا إلى منازلنا ، وربما لهذا نتصوّر دومًا أن كل يوم هو أشق الأيام .. أليس كذلك ؟!

ابتسم الدكتور (حسن) بدوره ، وهو يلقى جسده على المقعد الكبير خلف مكتبه ، قائلاً :

ـ لا تنس متاعب الإدارة أيضًا يا رجل .. إننى لست كبير جراحى المستشفى فحسب ، ولكننى مديرها أيضًا .

هزَّ زميله رأسه ، قائلاً :

ـ كان اللَّه (عزَّ وجلَ) فى عونك .

تمتم الدكتور (حسن) :

ـ ونعم باللَّه .

كان يهمّ بطلب قدح من الشاى ، عندما دلفت سكرتيرته إلى المكتب ، ممسكة بإشارة عاجلة ، وهى تقول فى حيرة أدهشته :

ـ إشارة من مشرحة (زينهم) يا دكتور (حسن) .

انعقد حاجباه ، وهو يسألها فى قلق :

ـ مشرحة (زينهم) ؟! وما صلتنا بهم ؟! إننا لم نفقد مريضًا يستحق الفحص والمراجعة ، منذ ما يقرب من ..

قاطعته فى توتر ، على الرغم من تنافى هذا مع أصول اللياقة :

ـ سيحضرون مريضًا إلى هنا .

هتف بدهشة ، شاركهُ إياها زميله :

ـ مريضًا ؟! من مشرحة (زينهم) ؟! ومنذ متى تختصّ المشرحة بالمرضى .

هزَّت رأسها نفيًا ، دلالة عدم الفهم ، وهى تقول :

ـ إنهم فى طريقهم إلى هنا .

ردَّ الدكتور (حسن) ، فى دهشة حائرة :

ـ فى طريقهم إلى هنا ؟!

ثم عاد يعقد حاجبيه ، متابعًا فى لهجة يغلب عليها الحذر :

ـ ربما هو أحد الأطباء .. أصيب فى أثناء العمل ، ورأوا نقله إلى هنا لإسعافه .

قال زميله فى حيرة :

ـ لماذا الإشارة الرسمية إذن ؟!

تراجع الدكتور (حسن) فى مقعده ، وازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يتمتم :

ـ نعم .. لماذا ؟!

مع آخر حروف كلماته ، تسلَّل إلى مسامعه دوى أبواق سيارة إسعاف تقترب ، فعاد يعتدل فى مقعده ، قائلاً :

ـ لا بأس .. دقائق وسنحصل على أجوبة لكل تساؤلاتنا .

ثم نهض يرتدى معطفه الطبى مرة أخرى ، وهو يبتسم ابتسامة متوترة ، مضيفًا :

ـ أعتقد أن العمل لم ينته الليلة بعد .

هبَّ زميله من مقعده ، قائلاً فى حزم :

ـ لا بأس .. عد أنت إلى منزلك ، وسأتولَّى أنا أمر هذه الحالة .

هزَّ الدكتور (حسن) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ ليتنى أستطيع .. إنها إشارة رسمية ، وهذه تبعيات الإدارة .

قالها ، وغادر حجرة مكتبه ، واتجه مع زميله إلى قسم الطوارئ ، فى نفس اللحظة التى توقَّفت فيها سيارة الإسعاف أمامه ، وقفز منها الدكتور (أحمد) ، قائلاً فى توتر :

ـ أنا الدكتور (أحمد شريف) ، من مشرحة (زينهم) .. لقد أرسلنا إشارة عاجلة ، و ..

قاطعه الدكتور (حسن) فى حزم :

ـ نحن فى انتظاركم .

عبرت سيارة الشرطة بوَّابة المستشفى ، فى نفس اللحظة التى نطق فيها عبارته ، فالتقى حاجباه فى توتر ، وهو يتابعها ببصره ، حتى توقَّفت خلف سيارة الإسعاف ، وغادرها الرائد (صفوت) فى عصبية واضحة ، فقال الدكتور (حسن) فى حذر :

ـ ماذا هناك بالضبط ؟!

بدا (أحمد) شديد التوتر ، وهو يجيب :

ـ إنه أمر صعب التصديق ، ولكن .. لا بأس .. سأخبرك بكل شىء .

تمتم الدكتور (حسن) ، فى حذر أكبر :

ـ هذا أفضل بالتأكيد .

ازدرد (أحمد) لعابه فى صعوبة ، وقال :

ـ الواقع أننا قد تسلَّمنا صباح اليوم جثة قتيل ، لقى مصرعه فى أحد الفنادق الفاخرة ، وعندما وصلت إلينا الجثة ، كانت بدون رأس .

بدا الاهتمام على وجه الدكتور (حسن) ، وهو يتساءل :

ـ ثم ماذا ؟!

ازدرد (أحمد) لعابه مرة أخرى ، قبل أن يجيب فى عصبية :

ـ ولكنها كانت حية .

تراجع الدكتور (حسن) بحركة حادة ، مع القول الأخير ، فاندفع (أحمد) يروى كل ما حدث ، بكل التفاصيل .. الأحشاء النشطة ..

الرأس الذى يعاود النمو ..

كل شىء ..

ولم يقاطعه الدكتور (حسن) أو زميلـه بحرف واحد طوال الوقت ، وهما يحدقان فيه بذهول تام مستنكر ، حتى انتهى من روايته ، ولهث بشدة ، من فرط الانفعال ، قائلاً :

ـ قبل أن تتهماني بالجنون ، ينبغى أن تعلما أن الرائد (صفوت) ، ضابط المباحث الجنائية بالمديرية ، كان شاهدًا على كل ما رويتـه ، ثم إن الجثة ـ أعنى المصاب ـ أو أيًا كان ما ستطلقوته عليـه ، معنا هنا ، فى سيارة الإسعاف .

تبادل الطبيبان نظرة متوترة ، قبل أن يتنحنح الدكتور (حسن) ، ويقول فى رصانة ، بذل قصارى جهده لاصطناعها ، كمحاولة لإخفاء حيرته واضطرابه وشكوكه :

ـ كلامك كله ، حتى مع تأكيد الرواية ، لا يحوى ذرة واحدة من الحقائق العلمية أيها الشاب ، فأبسط قاعدة طبية فى الوجود تؤكدً أن المخ هو المحرّك الرئيسى ، لكل أجزاء الجسد ، فيما عدا القلب(*) ، الذى يتمتّع بنظام إدارة خاص ، وهذا يعنى أنه

(★) حقيقة علمية وطبية .

مع نسف الرأس ، والمخ بالتبعية ، ينتهى النشاط الحيوى لكل خلية فى الجسد ، ومن المستحيل أن تعمل أية أجهزة بعدها ، حتى ولو افترضنا أن ..

قاطعه (أحمد) فى عصبية :

ـ ما رأيك لو قمتما بفحص ما نحمله أولاً ، ثم تحدثتما عن القواعد الطبية والعلمية فيما بعد ؟!

لم ترق هذه المقاطعة العصبية للدكتور (حسن) ، بحكم طبيعته ومنصبه ، إلا أنه ، وعلى الرغم من هذا أشار إلى (أحمد) قائلاً :

ـ فليكن .. أدخلوه إلى حجرة الفحص .

تابع ببصره الدكتور (أحمد) والضابط (صفوت) ، وهما يشرفان على نقل الجثة ، المغطاة بملاءة بيضاء كبيرة ، تلوّثت بعض أجزائها ببقع من الدم ، وتساءل فى حيرة :

ـ أمن الممكن أن يكون ما يقولانه صحيحًا ؟!

ولكن التساؤل لم يدم فى ذهنـه أكثر من ثانية واحدة ، هزّ رأسه بعدها فى حزم وحدة ، قائلاً :

ـ مستحيل !

تطلّع إليه (أحمد) و (صفوت) فى صمت ، ثم تبادلا نظرة سريعة ، قال الضابط بعدها فى توتر :

ـ هيا .. أعطنا رأيك الطبى ياسيِّدى .

تنحنح الدكتور (حسن) ، وربَّت على كتف زميله ، قائلاً :

ـ هيا إلى العمل يا صديقى .

دلف الكل إلى حجرة الفحص الصغيرة ، والتقط الدكتور (حسن) نفسًا عميقًا ، قبل أن يرفع الغطاء عن الجثة ، و ..

« مستحيل ! »

صرخ الضابط بالكلمة ، وهو يرتدّ فى عنف ، فى حين اتسعت عينا الدكتور (أحمد) عن آخرهما ، وهو يردِّد :

ـ رحماك يا رب .. رحماك يا رب ..

التفت إليهما الدكتور (حسن) ، فى حدة وهتف بعصبية :

ـ ماذا أصابكما .. أهى أوَّل مرة تريان فيها جثة محطمة الرأس ؟!

صاح (صفوت) ، وهو يشير إلى الجثة :

ـ عندما رأيتها آخر مرة ، ونحن نحضرها إلى هنا ، كانت بنصف رأس .

هتف الدكتور (أحمد) فى شحوب :

ـ وأنا أيضًا .

هتف زميل الدكتور (حسن) فى استنكار :

ـ مستحيل ! الرأس هنا سليم تقريبًا ، والملامح كلها واضحة .. كل ما فى الأمر هو أن قمة الرأس محطَّمة ، و...

قاطعه (أحمد) فى عصبية :

ـ انتظر ، وستلتئم قريبًا !

هتف الدكتور (حسن) فى حدة :

ـ تلتئم ؟! أين تعلَّمت الطب أيها الشاب ؟! القِ نظرة واحدة ، وستدرك أن قمة الرأس مهشَّمة تمامًا ، والمخ داخلها ممزَّق متهتِّك إلى أقصى حد .. هذا الرجل ميت مائة فى المائة ، و ..

قاطعته هذه المرة شهقة من زميله ، فالتفت إليه ، صائحًا فى غضب :

ـ حتى أنت ؟!

صاح زميله ، وهو يتراجع فى ذعر :

ـ الوريد العنقى .. انظر إلى الوريد العنقى .

حدَّق الدكتور (حسن) فى الوريد العنقى ، الذى يشير إليه زميله المذعور ، واتسعت عيناه عن آخرهما بدوره ..

فعلى نحو شديد الوضوح ، كان الوريد العنقى ينبض فى قوة ..

نعم .. ينبض بدماء الحياة والحيوية ..

وبكل دهشته وحيرته ، هتف (حسن) :

ـ رباه ! إنه .. إنه حىّ .

تراجع (صفوت) بحركة أكثر حدة ، وهو يهتف بذهول :

ـ حىّ ؟! مستحيل !

أما (أحمد) فغمغم بلهجة أشبه بالانهيار :

ـ هذا ما كنت أخشاه .

ثم ساد الصمت بضع لحظات ، والكل يحدّق فى الجثة بذهول ، قبل أن ينتفض الدكتور (حسن) فى حدة قائلاً :

ـ حالة تشخيص خاطئ أخرى .

هتف (أحمد) :

ـ تشخيص ماذا ؟!

اعتدل الدكتور (حسن) وهو يقول فى حزم :

ـ خطأ فى التشخيص ، كما يحدث لأى طبيب ناشئ .. الرجل مصاب فى رأسه بالفعل ، ومخه متهتّك ، ولكن قلبه ما زال يعمل ، لأنه يعتمد على صانع حركة داخلى خاص ، وعندما فحص طبيبنا

الشرعى الشاب الجثة ، تصوّر ، نظرًا لتهتّك المخ ، أنه أمام جثة ، ولكن الواقع أن ..

قاطعه (صفوت) فى حدة غاضبة :

ـ ولكن الواقع أن تلك الجثة كانت فاقدة الرأس تمامًا ، حتى بداية العنق ، عندما رأيتها لأوّل مرة .

تساءل الطبيب الآخر فى دهشة :

ـ فاقدة الرأس ؟! أتقصد مقطوعة الرأس ؟!

أجابه (صفوت) بنفس الحدة :

ـ بل منسوفة الرأس .

سأله فى سرعة متوترة :

ـ وأى سلاح يمكن أن يفعل هذا ؟!

هزّ (صفوت) رأسه فى عصبية ، مجيبًا :

ـ لا أحد يدرى .

انعقد حاجبا الدكتور (حسن) فى توتر بالغ ، وهو يحدّق فى الجثة ، مغمغمًا :

ـ مستحيل ! لا يمكننى أن أصدق هذا أبدًا .

قال (أحمد) فى غضب :

ـ وما الذى يدعونا لتلفيق قصة عجيبة كهذه ؟!

صاح به فى صرامة :

ـ محاولة إخفاء خطأ ما .. ربما كان الضابط هو المسئول عن إصابة الرجل ، وأنت تحاول حمايته ، بدافع صداقة أو قرابة .. من يدرى ؟!

هتف (صفوت) بغضب :

ـ كيف تجرؤ ..

أما (أحمد) فقال محنقًا :

ـ وهل فقدت عقلى ، حتى أحاول حمايته بقصة كهذه ؟! أليس من الأسهل أن أقوم بكتابة تقرير رسمى يبرئه ؟!

صاح الدكتور (حسن) :

ـ ومن أدرانى ؟!

ثم اندفع خارج المكان ، وهو يتابع بغضب هادر :

ـ أنا رجل علم ، ولا أومن بهذه الخزعبلات .. أريد تقريرًا طبيًا يمكن قبوله ، وإلا فلن أفحص خلية واحدة من هذه الجثة .

استوقفه (صفوت) فى غلظة ، قائلاً :

ـ اسمع يا رجل .. إما أن تفحص هذه الجثة ، أو ..

قبل أن يتمّ عبارته ، انطلقت صرخة رعب هادرة ، من حجرة الفحص ، ثم أعقبتها شهقات ألم وذعر متتابعة سريعة ، فاندفع (صفوت) نحو المكان ، وهو ينتزع مسدسه من حزامه ، فى حين لحق به (أحمد) والدكتور (حسن) ، والأخير يهتف :

ـ رباه ! أية ليلة هذه ؟! أية ليلة ؟!

قفز الثلاثة إلى الحجرة فى لحظة واحدة ..

ثم تراجعوا بمنتهى العنف ، فى لحظة واحدة أيضًا ..

فما رأوه أمامهم كان مذهلاً ..

ومفزعًا ..

إلى أقصى الحدود .

★ ★ ★

ففى ركن حجرة الفحص ، كان زميل الدكتور (حسن) ملقى ، وقد اتسعت عيناه عن آخرهما ، فى ألم ورعب ، وفى صدره فجوة كبيرة ، تتدفَّق منها أنهار من الدم ..

٣ ـ بداية ونهاية ..

من المؤكَّد أن ذلك المشهد ، الذى رآه الرجال الثلاثة ، فى حجرة الفحص ، بقسم الطوارئ فى المستشفى ، لن ينمحى من ذاكرتهم قط ، ما تبقَّى لهم من العمر ..

هذا لو تبقَّى لهم المزيد من العمر ..

ففى ركن حجرة الفحص ، كان زميل الدكتور (حسن) ملقى ، وقد اتسعت عيناه عن آخرهما ، فى ألم ورعب ، وفى صدره فجوة كبيرة ، تتدفَّق منها أنهار من الدم ، فى حين كانت الجثة .. أو بمعنى أدق ، كان ذلك الشخص ، ذو الملامح الأجنبية ، والشعر الأشقر القصير ، والذى كان مجرَّد جثة هامدة بلا رأس ، منذ بضع ساعات ، يقف على مسافة متر واحد من الرجل ، ممسكًا فى يده قلبه ..

نعم .. قلبه ..

بوسيلة ما ، لا يمكن تفسيرها قط ، بأية قواعد علمية ، أو طبية ، أو منطقية ، استعاد حياته وحيويته ونشاطه ، ونهض من رقاده ، بجسد ورأس كاملين ، لا تنقصهما خلية واحدة ، وانتزع قلب الطبيب المسكين ، و ...

وبكل توتره وذعره ، رفع (صفوت) مسدسه ، صارخًا :

ـ توقَّف .. توقَّف وإلا ..

لم يدر ما الذى يمكن أن يهدِّد به شيئًا كهذا ..

شيئًا استعاد حياته ، على نحو يخالف كل القواعد ..

شيئًا ـ لسبب ما ـ لا يموت أبدًا ..

وبهدوء مخيف ، استدار إليه ذلك الشخص ، وهو ما زال يمسك قلب الطبيب بين أصابعه ، وتطلَّع إليه بعينين باردتين كالثلج ..

واتسعت عيون الرجال الثلاثة ، فى رعب بالغ ، وهم يحدِّقون فى ذلك الوجه ..

من المنظور العام ، كانت الملامح وسيمة جميلة إلى حد كبير ..

ولكن ، فى تلك اللحظة ، وتحت تلك الظروف ، بدت لهم بشعة مخيفة ..

وإلى أقصى حد ..

ومرة أخرى ، ومع تحرُّك ذلك الشخص نحوهم ، صرخ (صفوت) :

ـ قلت : قف .

ولكن ذلك الشخص اتجه نحوهم فى هدوء بالغ ..

هدوء عجيب ..

مستفز ..

مخيف ..

ثم رفع يده إليهم ..

يده التى تحمل القلب البشرى ..

الدامى ..

ولوهلة ، خُيِّل إليهم أن القلب ينبض فى يده ، وبين أصابعه ..

أو أنه كان ينبض بالفعل ..

وبحيوية عجيبة ..

ومرة أخيرة ، وفى نفس اللحظة التى اقتحم فيها حرَّاس أمن المستشفى المكان ، صرخ (صفوت) :

ـ قف .. لا تتقدَّم خطوة واحدة .

ولكن ذلك الشخص تقدَّم خطوة أخرى ..

وأدار يده نحو (صفوت) ، والدم يسيل منها على نحو بشع ، و ...

وأطلق صفوت النار ..

لم يكن قرارًا عقلانيًا ، وإنما رد فعل بشريًا طبيعيًا ، أمام أمر يفوق كل إدراك البشر وعقولهم ..

أمر مخيف ..

رهيب ..

فدون حتى أن يدرى ، اعتصرت سبّابته زناد مسدسه الرسمى ، وانطلقت الرصاصات فى غزارة ..

انطلقت من فوهة المسدس ، لتخترق رأس ذلك الشخص ..

الرأس الذى نما منذ ساعات قليلة ..

تسع رصاصات اخترقت الرأس ، فى عنف شديد ..

ومن مسافة قصيرة للغاية ..

وفى مشهد بشع ، تحطّمت أجزاء من الجمجمة ، وبعض الأسنان ، وقطعة من الفك السفلى ، وانفجرت واحدة من العينين ..

ولكن ذلك الشخصى لم يسقط صريعًا ..

فقط تراجع لمتر أو يزيد ، ثم اعتدل ، وتطلّع إليهم بعينه المتبقية ، فى برود شديد ، بعد أن ارتطم بمائدة الفحص ، وأسقط

كل ما عليها من أدوية الطوارئ ، وأربطة الشاش ، والقطن ، وزجاجة كبيرة من الكحول النقى ، تحطّمت على أرضية الحجرة ، وأطلقت فى المكان كله رائحة قوية ، زادت من رهبة وعنف الموقف كله ..

وبكل رعب الدنيا ، تراجع حرّاس الأمن ، وانطلقوا يعدون هاربين ، وهم يطلقون صرخات مذعورة ، مع المشهد الرهيب ..

وفى ارتياع ، صرخ الدكتور (حسن) :

مستحيل ! مستحيل !

والتصق الدكتور (أحمد) بالجدار فى رعب لا محدود ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وساقاه تعجزان عن معاونته على الفرار ، الذى تمناه فى تلك اللحظة ، كما لم يتمن أى شىء آخر فى الوجود ..

أما الرائد (صفوت) ، فقد تراجع أيضًا خطوة ، بعد أن فرغت خزانة مسدسة ، لأوّل مرة فى حياته ، واتسعت عيناه فى رعب ، وهو يغمغم :

ـ ولكن ! ولكن !

ثم فجأة ، لمحت عيناه الكحول المسكوب ، عند قدمى ذلك الشخص ، والتمعت عيناه بفكرة مجنونة ، والرائحة النفّاذة تخترق أنفه ، وتغوص فى مخه حتى أعمق أعماقه ..

وبحركة بارعة سريعة ، التقط قدّاحته من جيبه ، وهو يقـول فى عصبية :

ـ فليكن .. ما من مخلوق حـى ، فـى الكون كلـه ، يمكن أن ينجو من هذا .

ثم أشعل القدّاحة ، وألقاها تحت قدمى ذلـك المخلوق ، وهـو يتراجع فى قوة ، ويدفع الدكتور (حسن) معه خارج الحجرة ..

واتسعت عينا (أحمد) أكثر وأكثر ، وهو يواجـه تلك الجثة الحية وحده ..

وفى لحظة أو أقل ، اشتعلت النيران ..

وعلى الرغم من هـذا ، واصـل ذلك الشىء تحركه لخطوة أو خطوتين ، وقد تحوّل إلى كتلة من اللهب ..

واتسعت عينا (أحمد) عن آخرهما ، وهو يصرخ ..

ويصرخ ..

ويصرخ ..

ولكن ذلك المشتعل توقّف فجأة ..

ثم تراجع فى عنف ، وكأنما أصابته صاعقة مباغتة ..

وانطلقت من حلقه صرخة ..

أو هى شىء أشبه بالصرخة ..

لقد انطلق منـه صوت أشبه ببئر عميقة ، انطلق داخلهـا إعصار مباغت ..

صوت تردّد فى المستشفى كله ..

أو ربما فى المنطقة بأكملها ..

وصرخ (أحمد) مرة أخرى ..

وصرخ ..

وصرخ ..

ومع صرخاته ، اندفع حرّاس الأمن مرة أخرى إلى المكـان ، حاملين أسطوانات الإطفاء الحمـراء ، ولكن (صفوت) صرخ فيهم بكل عصبيته وتوتره :

ـ كلاّ ..

صاح به الدكتور (حسن) :

ـ هل جننت أيها الضابط ؟! إنها نيران مشتعلة .

صرخ (صفوت) بعصبيـة أكثر ، وهـو يرفـع مسدسـه فـى وجوههم :

ـ قلت : كلاّ .

كـانت صرخـات (أحمـد) تخـترق أذنـه فـى قسـوة ، الدخـان ينتشر فى المكان كله ، ممتزجًا برائحة شواء مخيفة ، ولكن كل هذا لم يكن يساوى فى نظره شروى نقير ..

كل ما سيطر على كيانه لحظتها ، هو أنه من الضرورى أن يحترق ذلك الشىء ..

وحتى آخر خلية منه ..

مهما كانت العواقب ..

وهذا ما حدث ..

بمنتهى الدقة ..

* * *

الجثة المحترقة بأكملها ، والتى بدت أشبه بتمثال من الفحم ، كانت ترقد فى سكون ، على منضدة الفحص الرخامية ، فى قلب مشرحة (زينهم) ..

وبخطوات مرتجفة متردّدة ، دلف (أحمد) إلى المكان ..

كان يرتدى معطفه ، وقفازيه ، ويمسك بيده أكبر مشـرط فـى المكان كله ..

ولكن قلبه كان يخفق فى عنف ..

بمنتهى العنف ..

أو أنه كان يرتجف بين ضلوعه ..

من العسير عليه أن يقوم بعمله هذه المرة ..

من العسير جدًا ..

ولكنه تقدّم من الجثة المحترقة ..

واقترب ..

واقترب ..

ولثوان ، حدّق فيها صامتًا ، وتطلّـع إلـى الـرأس المحـترق ، متمتمًا :

ـ تُرى هل من الممكن أن ..

لم يتم عبارته ، وهو يرفع مشرطه بأصابع مرتجفة ، ويتجـه به نحو صدر الجثة ، و ..

وفجأة انفتحت العينان دفعة واحدة ..

وحدّقتا فيه بتلك النظرة الباردة المخيفة ..

واتسعت عيناه فى رعب بلا حدود ..

وسقط المشرط الكبير من بين أصابعه ..

وحاول أن يتراجع ..

وأن ينطلق هاربًا ..

ولكن قدميه تسمرتا فى الأرض ، كما حدث فى المرة السابقة ، وظلّت عيناه تحدّقان فى عينى الجثة ، و ...

وارتفعت اليد المحترقة بغتة ..

واخترقت صدره ..

ثم أمسكت قلبه .

« لا .. »

انطلقت الصرخة من حلق الدكتور (أحمد) ، وهو يهبّ جالسًا فى فراشه ، وقلبه يخفق بمنتهى العنف ..

وعلى الرغم من خروجه من ذلك الكابوس البشع ، فقد اتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدّق فى كل ما حوله ، وكأنما يتأكّد من أنه فى منزله ..

وفى حجرة نومه ..

ولثلاث دقائق كاملة ، ظلّ قلبه يخفق بذلك العنف ، وأنفاسه تتلاحق ، والعرق يغمر وجهه ، قبل أن يتمتم :

ـ مستحيل ! أسبوع كامل ، وذلك الكابوس يصرّ على مطاردتى كل ليلة .. أعتقد أننى لن أستطيع نسيان هذا أبدًا .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى ارتفع رنين الهاتف المجاور لفراشه بغتة ، على نحو جعله يقفز من مكانه ، وهو يطلق صرخة مذعورة ، ثم يختطف السمّاعة ، هاتفًا فى عصبية :

ـ من المتحدّث ، فى مثل هذه الساعة ؟!

أتاه صوت الرائد (صفوت) ، وهو يقول فى دهشة :

ـ هذه الساعة ؟! إنها الثامنة والنصف صباحًا .. أليس المفترض أن تذهب إلى عملك الآن ؟!

اتسعت عينا (أحمد) ، وهو يتمتم فى دهشة :

ـ الثامنة والنصف ؟!

قالها محدّقًا فى المنبة الكبير بجوار الهاتف ، قبل أن يطلق زفرة متوترة ، قائلاً :

ـ إننى فى إجازة .

قال (صفوت) فى دهشة :

ـ لماذا ؟! ألم تنته كل التحقيقات ، ويتمّ إغلاق الملف نهائيًا ؟!

زفر (أحمد) مرة أخرى ، قائلاً :

ـ إننى بحاجة إلى فترة من النقاهة وتهدئة الأعصاب .

زفر (صفوت) بدوره ، وهو يغمغم :

ـ كلنا بحاجة إلى هذا يا صديقى .. إنه أبشع ما مررت بـه فـى حياتى كلها .. لست أظننى سأنسى هذا قط .

هزَّ (أحمد) ، رأسه ، قائلاً فى توتر :

ـ الكوابيس ما زالت تهاجمنى كل ليلة .

هتف (صفوت) :

ـ أنت أيضًا ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، دون أن ينتبـه إلـى أنهمـا يتحدثـان عبر الهاتف ، فى حين تابع (صفوت) ، كما لو أنه لم ينتظر جوابًا :

ـ صدقنى يا صديقى ، أنا أيضًا تراودنى كوابيس مخيفـة كـل ليلـة .. الأمـر كلـه كـان كابوسًـا كبيرًا ، ومـا زال يدهشـنى أن المسئولين قد استوعبوا القصة ، على الرغم من غرابتهـا وعدم منطقيتها ، ويسعدنى أيضًا أنهم قـد وافقـوا علـى مطلبك بإذابـة الجثة فى حامض مركز ، بعد فحصهـا وتشريحها ، باعتبـار أن هذا هـو الحـل الوحيد لاتقـاء مـا يمكـن أن يحـدث منهـا فـى المستقبل .

اعتدل (أحمد) قائلاً :

ـ هذا أدهشنى أكثر فى الواقع .. بل لقد بدا لى أنهـم مستعدون بالفعل للتصديق ، أو أن ..

بتر عبارته بغتة ، فاستحثَّه (صفوت) ، قائلاً :

ـ أو أنهم ماذا ؟!

تردَّد (أحمد) لحظة ، قبل أن يندفع ، مجيبًا :

ـ أو أنهم يعلمون .

هتف (صفوت) ، بكل دهشة الدنيا :

ـ يعلمون ؟! مستحيل ! وكيف يمكن أن يعلموا أمرًا كهذا .

تنهدَّ (أحمد) قائلاً :

ـ لست أدرى ، ولكن تصوَّر نفسك فى موضعهم ، وشخص أتى ليخبرك بقصة كقصتنا ، مع جثة محترقـة ، فهل كنت ستنهى الأمر بكل إجراءاته ، خلال أسبوع واحد ؟!

غمغم (صفوت) ، بلهجة تسلَّل إليها الشك :

ـ ولا حتى فى عام كامل .

قال (أحمد) فى اهتمام أكثر :

ـ لماذا بدا الجميع متفهمين ومتعاونين إذن ؟! وكيل النيابة ، ورجال المباحث العامة ، وحتى رئيس مصلحة الطب الشرعى .. الكل استوعب رواية مذهلة ، فى سرعة أكثر مدعاة للذهول .. بل ووافقوا على إجراء فريد ، لست أظن أحدًا قد فكّر فيه مجرّد تفكير من قبل ، وكأنهم أكثر رغبة منا فى التخلّص من الجثة .. ألم يلفت هذا انتباهك ؟!

أجابه (صفوت) فى بطء ، وكل حرف من حديثه يحمل قنطارًا من الشك والحذر :

ـ بكل تأكيد ، ولكننى تصوّرت أن ..

بتر عبارته دفعة واحدة ، دون سبب محدود ، واستمرّ صمته بضع لحظات ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ أعتقد أننا نحتاج إلى التحدُّث وجهًا لوجه لبعض الوقت .. قل لى : هل يمكنك دعوتى إلى قدح من الشاى ؟!

أجابه (أحمد) فى لهفة ، وكأنما كان يتمنى هذا :

ـ إننى فى انتظارك .

لم تمض نصف الساعة ، حتى ضمتهما مائدة صغيرة ، مع قدحين من الشاى ، فى حجرة مكتب (أحمد) ، و(صفوت) يقول فى حسم :

ـ ما يدهشنى أكثر أن التحقيقات قد انتهت ، وتم إغلاق الملف ، بأمر من النائب العام شخصيًا ، على الرغم من أن كل تحرياتنا لم تتوصّل إلى معرفة شخصية القتيل أو هوية قاتلة .

سأله (أحمد) فى دهشة :

ـ لماذا ؟! ألم تجدوا شيئًا فى حافظته الشخصية ، أو فى جيوب حلته ؟!

هزّ (صفوت) رأسه مجيبًا :

ـ لم يكن يحمل حافظة ، أو أية أشياء أخرى .. لقد كانت جيوبه كلها خالية تمامًا .

تراجع (أحمد) ، قائلاً :

ـ خالية تمامًا ؟! وكيف هذا .. كل شخص منا يحمل فى جيبه شيئًا على الأقل .. تذكرة قطار قديمة ، مفاتيح سيارته أو منزله ، أو بعض النقود على الأقل .

هزّ (صفوت) رأسه مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ إلا هذا الشخص .. لقد ذهب إلى الفندق ، دون أن يحمل معه أية أشياء على الإطلاق .. حتى الحلّة ، التى كان يرتديها ، كانت جديدة ، ولم ينتزع منها السعر بعد .. من الواضح أنه قد ابتاعها قبل ذهابه إلى هناك مباشرة ، لمقابلة شخص ما .

مال (أحمد) نحوه ، متسائلاً فى اهتمام :

ـ وماذا عن مدير الفندق وموظفيه ؟!

سأله (صفوت) فى حذر :

ـ ماذا عنهم ؟!

قال فى سرعة :

ـ ربما كانوا هم من جرَّده من كل ما يحمله .

هزّ (صفوت) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ كلاَّ .. لقد افترضت هذا أيضًا ، ولكن الكل أكَّد أن ثلاثة من طاقم الأمن ظلوا مع الجثة طوال الوقت ، منذ مصرعها ، وحتى حضرت أنا .

انعقد حاجبا (أحمد) ، وهو يحاول البحث عن منطق الأمور ، ثم لم يلبث أن هزّ رأسه بدوره ، وهو يتمتم :

ـ عجبًا !

ثم استطرد فى اهتمام :

ـ وما دمتم تجهلون شخصية القتيل ، فمن الطبيعى أن يستحيل العثور على قاتله ، وسط ملايين البشر ، إلا إذا ..

هتف به (صفوت) :

ـ إلا إذا ماذا ؟!

أجاب فى سرعة أيضًا :

ـ إلا إذا حصلتم على أوصافه من الشهود .

مطَّ (صفوت) شفتيه ، وهو يقول فى حنق :

ـ لا تذكّرنى بهذا باللّه عليك ، فقد استجوبت الكل ، وخرجت بأربعة أوصاف مختلفة ، لا توجد أدنى صلة بين أى منها والباقين .. بعضهم وصفه بأنه عريض المنكبين ، خشن الشعر ، له شارب ضخم ، والبعض الآخر بأنه طويل نحيل له لحية قصيرة ، والبعض الثالث بـ ..

قاطعه (أحمد) ، قائلاً :

ـ يا للسخافة !

ابتسم (صفوت) ، مغمغمًا :

ـ صدقت .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، وكأنما يحاول تهدئة أعصابه الثائرة ، قبل أن يلوِّح بذراعه كلها ، قائلاً ، مع محاولة للابتسام :

ـ ولكن لماذا يقلقنا كل هذا ، بعد أن نفض الكل أيديهم منه ؟!

دعنا ننس كل شيء مثلهم يا صديقى ، ولنعد لممارسة حياتنا الطبيعية ، فمهما كان ما حدث ، فقد انتهى الأمر تمامًا ، وهذا هو المهم ..

أليس كذلك ؟!

تنهدَ (أحمد) متمتمًا :

ـ أتعشمَ هذا .

نطقها بلسان ما زال يحمل نبرة من الشك والقلق والحذر ..

نبرة لم ترقَ قط إلى مرحلة إدراك الحقيقة المخيفة ..

حقيقة أن كل هذا لم يكن نهاية الأحداث ..

لقد كان البداية ..

فقط .

★ ★ ★

٤ ـ لـون الـدم ..

آخر أيام الإجازة ..

التقط (أحمد) نفسًا عميقًا ، وهو يوقف سيارته أمام المشرحة ، فى ذلك الصباح ، وظلّ لخمس دقائق كاملة قابعًا داخل السيارة ، يتطلّع إلى المكان فى رهبة ، وكأنما هو زائر عادى ، أدرك لأوّل مرة فى حياته ، أن وظيفة المشرحة هى حفظ جثث الموتى ..

ثم أخيرًا ، انطلقت من أعمق أعماقه زفرة متوترة ، وهو يغادر السيارة ، مغمغمًا :

ـ لا بأس .. لا بد من مواجهة الأمر ، إن عاجلاً أو آجلاً .

دلف إلى المكان فى توتر ، وكأنه طبيب حديث التعيين ، واستقبله الزملاء والعاملون بابتسامات كبيرة ، وترحاب شديد ، وأسرع عامل المكان يعدّ له قدح القهوة المعتاد ، قبل حتى أن يستقر على مكتبه ، وبدا الكل ودودًا مرحّبًا ، على نحو أزال توتره ، ومنحه الكثير من الهدوء والاستقرار والثقة ، حتى إنه ارتدى معطفه الطبى فى حماس ، وهو يسأل زميله بابتسامة كبيرة :

ـ والآن ماذا لدينا اليوم ؟!

ضحك زميله ، قائلاً :

ـ هل تتعجّل العمل إلى هذا الحد ؟!

هزّ (أحمد) كتفيه ، وابتسم ، قائلاً :

ـ ما دمنا هنا ، فالعمل أفضل من الملل .

ضحك زميله مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ يبدو أنك مضطر للاكتفاء بالملل اليوم ، فلأوّل مرة ، منذ فترة طويلة ، ليست لدينا حالات للفحص .. الزملاء أنهوا كل العمل أمس .

تنهّد (أحمد) ، قائلاً :

ـ عظيم .

ولكن زميله استدرك فى سرعة :

ـ فيما عدا ..

قالها ، وبتر عبارته بغتة ، على نحو جعل (أحمد) ينحنى نحوه ، متسائلاً :

ـ فيما عدا ماذا ؟!

هزّ كتفيه ، وتردّد لحظة ، قبل أن يقول :

ـ عينة الدم .. أعتقد أنه لم يعد هناك مبرّر للاحتفاظ بها الآن .

انعقد حاجبا (أحمد) ، وهو يسأله :

ـ أية عينة دم ؟!

تردّد زميله بضع لحظات أخرى ، وكأنما يخشى أن يفسد الموقف ، فقال (أحمد) يستحثه ، فى شىء من العصبية :

ـ أية عينة دم تتحدّث عنها ؟!

زفر زميله مستسلمًا ، وقال :

ـ عينة الدم ، التى حصلت عليها من تلك الجثة ، صاحبة المشكلة الـ ..

اتسعت عينا (أحمد) عن آخرهما ، وهو يتذكّر الأمر فجأة ..

كيف نسى عينة الدم تلك ؟!

كيف غابت عن ذهنه ، وسط كل تلك الأحداث العنيفة ؟!

بل كيف غابت عن أذهان المحققين ، والمسئولين ، ورجال الشرطة ، والنيابة ، والكل ؟!

كيف ؟!

وبتوتر أدهش زميله ، التفت إليه ، قائلاً :

ـ أين تلك العينة ؟!

أجابه زميله فى دهشة :

ـ فى ثلاّجة المعمل .. لست أدرى لماذا احتفظوا بها كلها ؟! عشرة سنتيمترات أو عشرون كانت ستكفى كل الفحوصات الممكنة ، وكل الـ ..

قاطعه (أحمد) فى عصبية :

ـ عشرون ماذا ؟! ما الذى تقصده بقولك هذا يا رجل .. كم يبلغ حجم العينة التى وصلتكم ؟!

مطّ زميله شفتيه ، مجيبًا فى حذر :

ـ حوالى الخمسين .

سأله فى حدة :

ـ خمسون ماذا ؟!

قال زميله فى توتر :

ـ خمسون سنتيمترًا تقريبًا يا (أحمد) .. ماذا أصابك ؟! أما زلت تشعر بالتوتر ، كلما تذكّرت الـ ..

قفز (أحمد) من مقعده ، قبل أن يتمّ زميله عبارته ، وانطلق يعدو كالصاروخ ، نحو المعمل ..

عشرون سنتيمترًا .. خمسون سنتيمترًا ..

رباه ! ما الذى يحدث بالضبط ؟!

أى عبث شيطانى هذا ؟!

كيف تنمو هذه الأشياء ، على هذا النحو العجيب ؟!

كيف ..

كيف ..

أدهش موقفه الكل ، فتبعوه إلى المعمل الصغير ، وهتف به مديره ، عندما اقتحم المكان فى عنف :

ـ ماذا دهاك يا دكتور (أحمد) ؟! ماذا حدث ؟!

فتح (أحمد) ثلاّجة المعمل فى حركة حادة ، ثم اتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدّق فى الوعاء الكبير ، الممتلئ بما يقرب من نصف لتر من الدم أمامه ، على نحو يكاد معه الغطاء المُحكم يتفجّر ، وتراجع فى توتر بالغ ، هاتفًا :

ـ مستحيل ! مستحيل !

صاح به مديره :

ـ ما هو المستحيل !

أشار إلى الوعاء فى عصبية ، قائلاً :

ـ كل هذا الدم .. كيف أصبح هكذا ؟!

مال مديره برأسه ، يتطلّع إلى الدم فى دهشة ، متسائلاً :

ـ أصبح ماذا ؟!

صاح (أحمد) فى حدة :

ـ كيف أصبح بهذا الحجم .. أعنى بهذه الكمية ؟!

بدت حيرة أكثر على وجه المدير ، وهو يتساءل :

ـ أية كمية ؟!

صاح (أحمد) :

ـ هذه العينة كانت عشرين سنتيمترًا فحسب ، عندما أرسلتها إلى هنا ، فكيف بلغت هذا المقدار ، خلال عشرة أيام ؟! كيف ؟!

حدّق المدير فى وجهه ، كما لو أنه يتطلّع إلى مجنون ، قبل أن يقول فى حدة :

ـ ومن قال إن هذه العينة تخصك ؟! إنها تخصّ بعض الأبحاث ، التى أجريها أنا ، والتى تستهلك كميات كبيرة فى المعتاد .

اتسعت عينا (أحمد) ، وهو يقول ذاهلاً :

ـ تخصّك أنت ؟!

ثم استدار يحدّق فى الثلاّجة شبه الخالية مرة أخرى ، قبل أن يهتف :

ـ أين العينة الأخرى إذن ؟!

تنحنح فنى المعمل ، وقال فى حرج متردّد :

ـ الواقع أن ..

استدار إليه (أحمد) بحركة حادة ، متسائلاً فى شراسة :

ـ أن ماذا ؟!

ارتبك الفنى أكثر ، وقال فى شىء من الذعر :

ـ إنها عينة تالفة ، وغير مسجّلة رسميًا ، و ..

صاح فيه (أحمد) ، بشراسة أكبر :

ـ ماذا فعلت بالعينة ؟!

لوّح الرجل بذراعيه فى هلع ، هاتفًا :

ـ أنا لم أفعل شيئًا .. لقد تحطّمت القنينة وحدها ، والدم كله كان متجلّطًا ، ولقد اضطررت للتخلص منها فى البالوعة .

قاطعه (أحمد) ، هاتفًا فى ارتياع :

ـ متجلّطًا ؟! البالوعة ؟! يا إلهى ! يا إلهى !

تراجع مع هتافه ، وترك جسده يهوى على أوّل مقعد ارتطم به ، أمام دهشة وتوتر الجميع ، وعلى رأسهم المدير ، الذى قال للفنى فى غضب عصبى :

ـ كيف يمكن أن يتجلّط الدم هنا ؟! المفترض أن تمنعه البرودة من هذا .

هتف الرجل مذعورًا :

ـ أقسم لك ياسيادة المدير إننى لا أعرف كيف ..

قاطعه (أحمد) فى صوت خافت ، ولهجة حملت كل مرارة الدنيا :

ـ أنا أعرف كيف ؟!

التفت إليه الجميع فى دهشة بالغة ، فتراجع برأسه فى ألم ، مستطردًا :

ـ ولكننى أجهل لماذا ؟! لماذا ؟!

نعم .. هذا هو السؤال الحقيقى ، والأكثر خطورة ، فى ظل هذه الظروف ..

لماذا يحدث كل هذا ؟!

لماذا ؟!

* * *

اشرأب (صفوت) بعنقه وهو يحدّق فى وجه (أحمد) بذهول ، وتدلّى فكه الأسفل على نحو عجيب ، وهو يهتف :

ـ حية ؟! دماء حية ؟! ماذا تعنى بقولك هذا يا رجل ؟!

هزّ (أحمد) رأسه ، وقال :

ـ أعنى ما فهمته بالضبط ، وما تحاول إقناع نفسك بعدم فهمه ..

عينة الدم ، التى اخذتها من الجثة ، تنمو .. تمامًا كما حدث مع الجثة نفسها .

حدّق (صفوت) فى وجهه لحظة أخرى ، ثم لم يلبث أن تراجع ، وأشعل سيجارته فى عصبية ، قائلاً :

ـ رباه ! ألن ينتهى هذا الكابوس أبدًا ؟!

مال (أحمد) نحوه بدوره ، وهو يقول :

ـ أخشى أنه قد بدأ فحسب يا صديقى .

اتسعت عينا (صفوت) وهو يهتف مذعورًا :

ـ بدأ ؟!

أومأ (أحمد) برأسه ، قائلاً :

ـ فنى المعمـل لـم يفهـم مـا حـدث ، إلا من مســتوى تفكيـره المحدود فحسب ، فالقنينة التى تحوى عينة الدم تحطّمت ، لأن الدم قد نما وتزايد ، وتضـاعف حجمـه ، مـن السـنتيمترات العشرين ، التى حصلت عليها أنـا ، إلـى سنتيمترات خمسـين ، رآها زميلى ، إلى كتلة متجلّطة ضخمة ، تفوق سـعة القنينـة .. كتلة تخلّص منها الفنى عبر البالوعة ، لتواصل نموّها فى مكـان لا يعلمه إلا اللّه (سبحانه وتعالى) .

نفث (عصمت) دخان سيجارته فى عصبية ، وهو يغمغم فـى توتر بالغ :

ـ نموّها ؟!

ضرب (أحمـد) سحب الدخان بيده ، وهو يهتف فى حدة :

ـ توقّف عن تدخين هذا السم .. إنك تقتل نفسك بهـذا ، دون أية جدوى .

مطّ (عصمت) شفتيه فى حنق ، وهتف :

ـ دعك من التدخين ومضاره ، وأخبرنى باللّه عليـك : مـا الـذى تعنيه بمواصلة النمو هذه ؟!

هزّ (أحمد) كتفيه ، وقلب كفيه ، قائلاً :

ـ أعنى ما تخشى فهمه يا صديقى .. تلك الكتلة المتجلّطة أشبه بجنين فى طور النمو .. جنين لا يحتاج إلى رحم ، لأنـه يلتقط عوامل نموه من كل ما حوله ، حتى يصبح كائنًا كاملاً ، مثل ..

ازدرد لعابه فى صعوبة ، قبل أن يتابع فى عصبية :

ـ مثل ذلك الذى قتلته هناك .. فى حجرة الفحص بالمستشفى .

انتفض جسد (صفوت) فى عنف ، وسقطت سيجارته من بين شفتيه ، وعيناه تبلغان اتساعهما ، وهو يحدّق فى وجه (أحمـد) كالمصعوق ، لدقيقة أو يزيد ، قبل أن يقول بصوت مرتجف :

ـ مستحيل ! مستحيل أن يحدث هذا مرة أخرى .

ثم لوّح بذراعه ، وهو يميل لاستعادة سيجارته بيده الأخـرى ، مستطردًا :

ـ ثم من أدراك أن ذلك الـدم سـينمو بـالفعل ، أو سـيمكنه أن يواصل النمو ، فى بيئة كهذه ؟! أليس من المحتمل أن يقتلـه التلوّث فى أنابيب المجارى ؟!

مطّ (أحمد) شفتيه ، مغمغمًا :

ـ هذا محتمل .

هتف (صفوت) ، وكأنما وجد مخرجًا :

ـ ألم أقل لك ؟!

أجاب (أحمد) فى حزم :

ـ ومن المحتمل أن يتواصل النمو ، على الرغم من كل العوامل .

انعقد حاجبا (صفوت) ، وهو يقول فى عصبية :

ـ ليس لدينا دليل واحد على هذا .

زفر (أحمد) فى توتر ، وقال :

ـ من يدرى ؟! ربما أتانا الدليل على نحو لا يمكننا احتماله .

لم يعلّق (صفوت) على العبارة ، وهو يميل ليستند إلى مقعده ، وينفث دخان السيجارة فى عصبية ، وعقله يتساءل بكل قلق الدنيا : هل يمكن أن ينمو ذلك الدم بالفعل ؟!

هل ؟!

وبقى السؤال يمزّق خلايا مخه بلا جواب ..

أو رحمة ..

★ ★ ★

انطلقت دقات الساعة ، تعلن تمام منتصف الليل فى (القاهرة) ، وشدّ حارس الأمن ، فى ذلك المبنى الأنيق ، فى حى الزمالك ،

قامته ، والتقط نفسًا عميقًا من هواء الليل الرطب ، قبل أن يلتقط مجلة فنية حديثة ، مغمغمًا :

ـ ليلة جديدة من الملل والإرهاق .

وتنهدّ فى أسى ، وهو يطالع المجلة ، متابعًا :

ـ لن يمكننى الاستمرار طويلاً فى هذه المهنة .. إننى لم أحصل على شهادتى الجامعية ، لأعمل كحارس أمن .

واصل مطالعة المجلة فى اهتمام ، وهو يرفع ساقيه على سطح المكتب ، و ..

وفجأه ، لمح ذلك الشىء ..

كتلة حمراء دامية ، فى حجم جنين صغير ، تستقر فى نهاية مدخل البناية ، بالقرب من فتحات الصرف ..

ولوهلة ، خُيّل إليه أنها جنين غير مكتمل النمو بالفعل ، إلا أنه لم يكد يعتدل فى مجلسه ، ويلقى نظرة أخرى عليها ، حتى أدرك أنها مجرّد كتلة حمراء قانية غير منتظمة ..

وبدهشة وقلق ، اتجه الحارس نحو تلك الكتلة ، وهو يتحسّس مسدسه فى توتر ، وانحنى يتطلّع إلى الكتلة القانية فى حيرة ..

كانت أشبه بقطعة كبيرة من الجيلى ، حمراء قانية ، و ...

واصل مطالعة المجلة فى اهتمام ، وهو يرفع ساقيه على سطح المكتب ، و ..
وفجأة ، لمح ذلك الشىء .. كتلة حمراء دامية ، فى حجم جنين صغير ، تستقر
فى نهاية مدخل البناية ..

وتنبض ..

نعم .. تنبض فى بطء وقوة ، كما لو أنها تحوى فى أعماقها قلبًا حيًّا ..

واستحالت دهشة الحارس إلى ذهول تام ، وهو يتمتم :

ـ ما هذا بالضبط ، وكيف وصل إلى هنا ؟!

كان ذلك الشىء ينبض على نحو عجيب ، جذب انتباه الحارس فى شدة ، فاقترب أكثر وأكثر ، و ..

وفجأة ، وثب ذلك الشىء الدموى ..

وثبة قوية مباغتة ، جعلته يلتصق بوجه الحارس ، الذى تراجع فى عنف كالمصعوق ، واختنقت صرخته ، خلف تلك الكتلة الدموية ، الملتصقة بوجهه ، وراح يضرب بذراعيه فى عنف ، وأمسك ذلك الشىء ، يحاول انتزاعه عن وجهه ..

ولكن أصابعه غاصت فى كتلة من الدم ..

كتلة تفجَّرت على نحو رهيب ، وغمرت جسده كله بالدم ..

وبكل الرعب ، راح الحارس يتراجع ، ويتراجع ، وذراعاه تقاتلان فى استماتة ، ورعب ، وهلع ..

ولكن أنفاسه اختنقت فى صدره ..

واختنقت ..

واختنقت ..

ثم لم تلبث مقاومته كلها أن انهارت ..

وسقط جسده ..

سقط جثة هامدة ..

وفى بطء ، راحت بقع الدم تنفصل عن جسده ، وتزحف فوقه فى نعومة مدهشة ، لتلتصق مرة أخرى بذلك الكيان ، الذى ظل مستقرًا على وجه الحارس طويلاً ..

طويلاً جدًا ..

★ ★ ★

هبَّ (أحمد) من فراشه مذعورًا ، مع رنين جرس باب منزله المتصل ، فاندفع نحوه فى عصبية ، هاتفًا .

ـ حسن .. حسن .. أنا قادم .

ولم يكد يفتح الباب ، حتى هتف فى دهشة عارمة :

ـ (صفوت) .. ما الذى ..

قاطعه (صفوت) فى صرامة ، قبل أن يتمّ عبارته :

ـ ارتد ملابسك ، وتعال معى فورًا .

حدّق (أحمد) فى وجهه ، متسائلاً بكل القلق :

ـ ماذا هناك ؟!

تجاوزه (صفوت) إلى الداخل ، مجيبًا :

ـ جريمة قتل ، أريد منك أن تعاينها بنفسك .

قال (أحمد) ، فى دهشة حذرة :

ـ جريمة قتل ؟! ومنذ متى ينتقل الطبيب الشرعى إلى مسرح الجريمة مباشرة ؟!

أجابه (صفوت) ، فى صرامة عصبية :

ـ هذه الجريمة استثناء من القاعدة .

اتسعت عينا (أحمد) فى ارتياع ، وقد أدرك ما يرمى إليه (صفوت) ، وغمغم :

ـ انتظرنى دقيقة واحدة .

لم يتبادل أحدهما كلمة واحدة مع الآخر ، طوال الطريق إلى الزمالك ، وما إن بلغا البناية ، التى وقع عندها الحادث ، حتى اتجه (صفوت) نحو الجثة المغطاة ، وكشف الغطاء عنها ، وهو يقول فى توتر :

ـ لقد عثر عليه حارس البناية المجاورة بالمصادفة البحتة .

انتفض جسد (أحمد) فى عنف ، وهو يحدّق فى جثة الحارس ، بذهول يمتزج بالرعب والهلع ..

لقد كانت الجثة ملقاة على ظهرها ، وقد اتسعت عيناها ، فى رعب هائل ، وتجعَّد جلدها كله ، مكتسبًا لونًا شديد الزرقة ..

لون جسد خلا تمامًا من الدم ..

حتى آخر نقطة ..

ودون كلمة واحدة ، انحنى (أحمد) يفحص الجثة بدقة أكبر ، فى حين اكتفى صفوت بالتطلع إليه ، وهو ينفث دخان سيجارته فى عصبية ..

وكان الأمر كله رهيبًا بحق ..

لقد امتصَّ شىء ما كل قطرة دم فى جسد الحارس ، على نحو لا مثيل له ..

ثم إن ذلك الشىء قد زحف نحو مدخل البناية ..

زحف لمتر أو يزيد ، ثم نهض ..

نعم .. نهض واقفًا على قدمين صغيرتين ، فى حجم قدمى طفل ، خطا بهما عشر خطوات تقريبًا ، قبل أن يختفى كل أثر له دفعة واحدة ..

وفى عصبية زائدة ، ومع نهوض (أحمد) ، غمغم (صفوت) :

ـ إنه هو .. أليس كذلك ؟!

أومأ (أحمد) برأسه إيجابًا ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فهتف (صفوت) فى حنق ، وهو ينفث دخان سيجارته :

ـ كنت أعلم هذا .

تطلَّع (أحمد) إلى الجثة مرة أخرى ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ أريد فحص هذه الجثة .. الآن .

أشار (صفوت) إلى الرجال ، فأسرعوا يحملون الجثة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ مشرحة (زينهم) .. فورًا .

شملهما الصمت مرة أخرى لبعض الوقت ، وهما ينطلقان نحو المشرحة ، قبل أن يهتف (صفوت) فى غضب :

ـ ما الذى يسعى إليه ذلك الشىء بالضبط ؟!

أجابه (أحمد) فى توتر :

ـ النمو .

هتف (صفوت) :

ـ وما هو بالضبط ؟! من أين جاء ؟! وما الذى يريده منا ؟!

صمت (أحمد) بضع لحظات فى تردُّد ، قبل أن يسأل (صفوت) فى حذر :

ـ قل لى يا رجل .. هل تؤمن بوجود كائنات فى عوالم أخرى ؟!

حدّق (صفوت) فيه لحظة بذهول ، قبل أن يهتف محنقًا :

ـ هل تعتقد أن الوقت يناسب هذه الخزعبلات ؟!

أجابه (أحمد) فى حزم :

ـ وجود كائنات فى كواكب أخرى ليس خزعبلات .. إنه فرضية علمية جادة للغاية ، وفرضية منطقية أيضًا .

صاح (صفوت) فى حدة :

ـ وهل هذا وقت مناقشة الفرضيات ؟!

أجابه بحزم أكثر :

ـ هذا هو الوقت المناسب تمامًا .

صاح (صفوت) :

ـ بدلالة ماذا ؟!

هتف (أحمد) فى توتر :

ـ ألم تنتبه بعد إلى ما يحدث يا رجل ؟! ألم تدرك قط أننا نواجه شيئًا لا ينتمى إلى عالمنا ، بأى حال من الأحوال ؟! ألم تحاول أبدًا ربط الأحداث ببعضها، وفهم ما يمكن أن تعنيه ؟!

قاتل غامض مجهول ، يعجز الكل عن وصفه بدقة ، يستخدم سلاحًا رهيبًا ، قادرًا على نسف رأس بشرى كامل ، دون أن يصدر صوتًا ، ودون أن تكشفه بوّابات الأمن الإليكترونية ، وقتيل يفقد رأسه كله ، ثم ينمو ذلك الرأس مرة أخرى ، ويعود القتيل إلى الحياة ، وينتزع قلب رجلٍ حى ، ثم يتلقّى تسع رصاصات دون أن يموت ، ثم عينة دم تتضخّم ، ويتضاعف حجمها وحده ، حتى تحطم قنينتها ، ورجل يتم قتله ببشاعة ، وامتصاص كل نقطة دم فى جسده .. ألم تقتنع بعد أن كل هذا لا ينتمى إلى عالمنا ؟!

حدّق (صفوت) فيه بذهول ، وتطلّع عبر زجاج السيارة إلى سيارة الإسعاف ، التى تنطلق أمام سيارة (أحمد) ، وارتجفت شفتاه بضع لحظات ، قبل أن يتمتم فى خفوت شديد :

ـ من عالم آخر ؟!

احترقت السيجارة بين أصابعه ، دون أن يدرى ، حتى شعر بلهيبها ، فألقاها بعنف عبر النافذة ، هاتفًا :

ـ مستحيل !

ثم التفت إلى (أحمد) ، متابعًا فى عصبية :

ـ طوال حياتى لم أصدّقَ هذه الخرافات أبدًا ، ولن أصدّقها الآن ، لمجرّد أن أمامنا لغزًا لم نتوصّل إلى حله بعد .. التبرير الذى

تبحث عنه أسخف من الموقف نفسه .. اعترف بعجزك عن الفهـم ، بدلاً من أن تؤلّف قصة سخيفة عن الفضاء وسكانه المزعومين .

هتف (أحمد) فى حدة :

ـ ألديك تفسير آخر أيها العبقرى ؟!

صاح (صفوت) :

وهل هناك تفسير أوّل ؟! هل تحاول إقناعى بأن القاتل والقتيل مخلوقان مـن كوكب آخر ، قطعا ملايين الكيلو مترات ، من (المريخ) إلى هنا ، ليقتل أحدهما الآخر .

قال (أحمد) فى عصبية :

ـ ومن تحدث عن المريخ ؟!

هتف (صفوت) فى سخرية عصبية :

ـ إنهما ليسا من القمر بالتأكيد .

انعقد حاجبا (أحمد) فى غضب وقال :

ـ فليكن .. من الواضح أنك تمتلك عقلية غير علمية على الإطلاق.

قال (صفوت) فى حدة :

ـ سأترك لك هذا الامتياز ، أيها العلمى العبقرى .

مطّ (أحمد) شفتيه ، مغمغمًا :

ـ يا للسخافة !

فأشاح (صفوت) بوجهه ، هاتفًا :

ـ يا للحماقة !

لم يتبادلا كلمة أخرى ، وكلاهما يكتم غيظه فى أعماقه ، حتى بلغا مشرحة (زينهم) ، فأسرع (أحمد) يرتدى معطفه وقفازيه ، واندفع لفحص الجثة ، التى تم نقلها إلى قاعة التشريح ، فى حين وقف (صفوت) فى الخارج ، ينفث دخان سيجارته فى عصبية ، وهو يكرّر كل بضع دقائق :

ـ مخلوقات من الفضاء !! يا للسخافة !

مضت أكثر من ساعة كاملة ، بدت لـه أشبه بالدهر ، نفث خلالها دخان علبة سجائر كاملة ، قبل أن يخرج (أحمد) من حجرة الكشف ممتقع الوجه ، على نحو مخيف ، جعل (صفوت) يحدّق فيه بضع لحظات فى ذهول ، قبل أن يهتف بنفاد صبر :

ـ ماذا هناك باللّه عليك ؟!

هزّ (أحمد) رأسه ، بكل شحوب الدنيا ، وهو يتمتم بصوت مرتجف :

ـ لن يمكنك أن تصدّق .. لن يمكنك أبدًا .

واتسعت عينا (صفوت) عن آخرهما ..

فالأمر كان بالفعل مذهلاً ..

مذهلاً للغاية .

★ ★ ★

٥ ـ نمـــو..

الثالثة بعد منتصف الليل ..

ساد الهدوء تمامًا تلك المنطقة ، فى وسط مدينة (القاهرة) ، عند ميدان (أحمد عرابى) ، حتى إن صوت عبور سيارة شرطة النجدة ، دون أن تطلق أبواقها التقليدية ، بدا مزعجًا للغاية ، خلال الدقيقة التى استغرقتها ، قبل أن تنطلق إلى شارع (قصر النيل) ، ويتلاشى صوتها رويدًا رويدًا ..

ثم يعود الهدوء التام ، ليشمل كل شىء ..

ومن أحد الأركان المظلمة ، وبنعومة عجيبة ، تحرّك جسم غريب ، ليعبر الطريق ، بسرعة كبيرة نسبيًا ..

كان أشبه بطفل صغير ، يسير على ساقين قصيرتين للغاية ، إلا أن نصفه العلوى كله كان عبارة عن كتلة هلامية ، حمراء قانية ، غير ذات معالم ..

الواقع أنه لم يكن يسير على هاتين الساقين ..

بل كان ينزلق ، كقطرة ماء على سطح أملس ، على نحو لا يمكن أن يقوم به أى كائن حى ، على سطح الأرض ، باستثناء أنواع نادرة من الثعابين الزاحفة ، ضئيلة الحجم ..

وبخفة مدهشة ، مال ذلك الجسم ، ليختفى وسط بقعة مظلمة أخرى ، ملاصقة لجدار بناية قديمة ..

ثم توقّف تمامًا ، وتجمّد فى مكانه ، حتى صار من المستحيل تمييزه عما يحيط به ..

ومن بعيد ، أتى أحد السكارى يترنّح ويقطع المكان بخطوات غير متزنة ، وهو يرفع عقيرته بغناء أجش منكر ..

واعتدل ذلك الجسم الغريب فجأة ..

ومال فى بطء ، وكأنما يتابع حركة ذلك السكير ..

ثم انزلق فجأة يتبعه ..

كان يتحرّك بسرعة كبيرة ، ويقطع الطريق ، تحت الأضواء مباشرة ، فى جرأة عجيبة ، كما لو أن بلوغ الهدف هو هدف فى حد ذاته ..

أو أنه حياة بأكملها ..

ولسبب ما ، توقّف السكير بغتة ، ثم استدار بحركة حادة ، ينظر إلى ما خلفه ..

وفى نفس اللحظة ، وثب ذلك الجسم ..

والتصق بوجه الرجل وصدره ، ودفعه أمامه فى عنف ، ليسقط على ظهره بدوى شديد ، فى وسط الشارع ..

وعلى الرغم من غياب عقله ، راح الرجل يقاوم ويدافع عن حياته بعنف واستماتة ، وراح يغرس أصابعه فى ذلك الجسم مرات .. ومرات .. ومرات ..

ولكن أصابعه غاصت فى كيان لين هذه المرة ، ثم ارتدّت فى عنف ، دون أن تترك فى الجسد القانى أدنى أثر ..

وراحت أنفاس الرجل تختنق ..

وتختنق ..

وتختنق ..

وأخيرًا ، تلاشت مقاومته ..

وانهار ذراعاه إلى جواره ..

ثم تراخى جسده كله ..

وفى هدوء ، استقرّ ذلك الجسم الدموى فوقه ، وراح يمتصّ الدم من جسده ، فى شراهة عجيبة ..

شراهة مدهشة ، جعلته ينتزع نصف لتر فى كل دقيقة ..

وخلال اثنتى عشرة دقيقة فحسب ، كان قد استولى على كل قطرة دم ، فى جسد السكير .. كل قطرة ..

ثم انتقل لامتصاص الـ ..

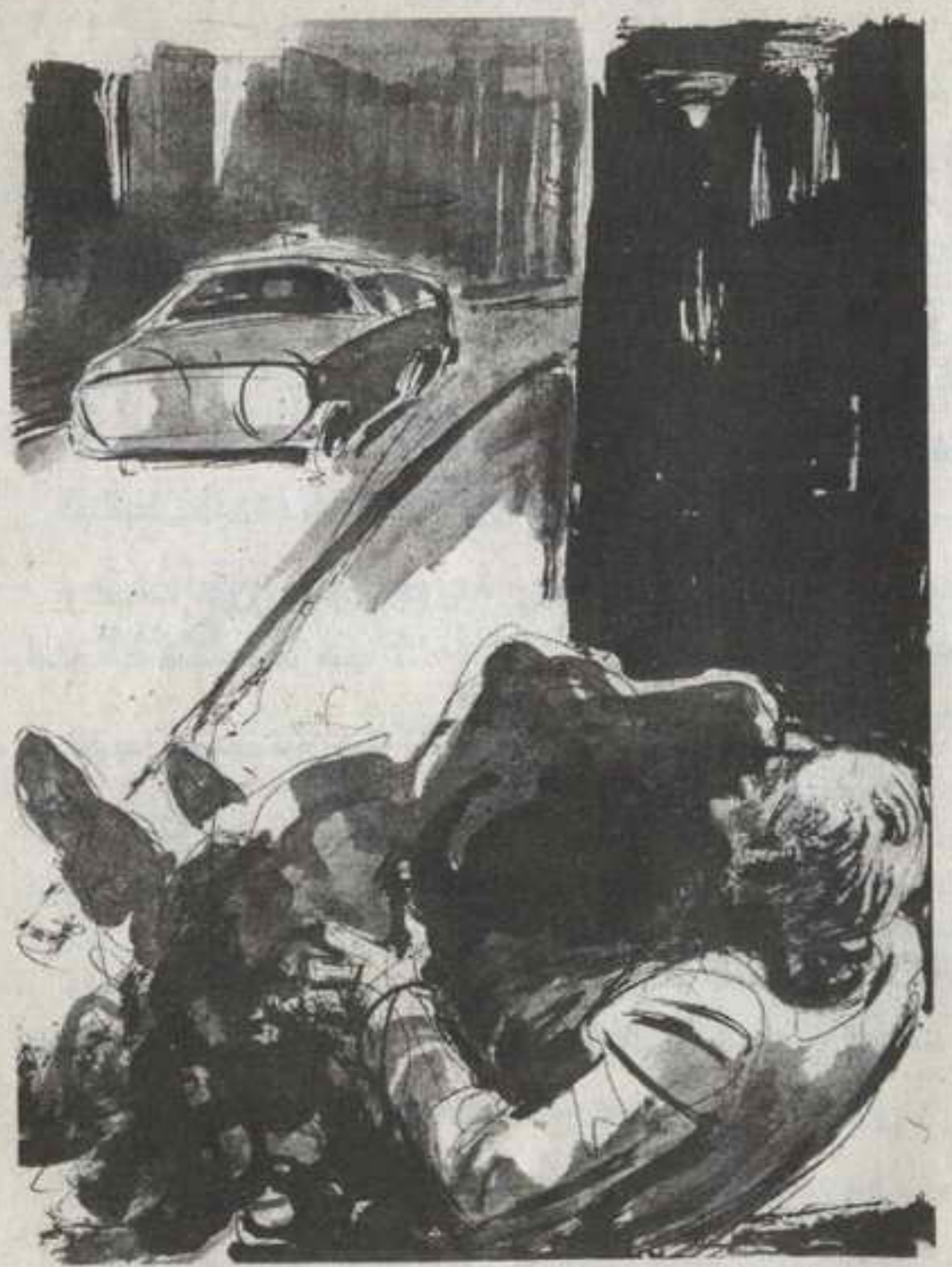

ولكن أصابعه غاصت فى كيان لين هذه المرة ، ثم ارتدّت فى عنف ، دون أن تترك فى الجسد القانى أدنى أثر ..

« رباه ! ما هذا بالضبط ؟! »

أطلق سائق سيارة دورية الشرطة العبارة ، فى ذعر ذاهل ، وهو يطلق ضوء مصباحى سيارته ، ليغمر الكائن الدموى وضحيته بغتة ..

وتوقّف الكائن دفعة واحدة ..

ثم نهض بحركة حادة ، ليواجه سيارة دورية الشرطة ..

واتسعت عيون ضابط الدورية وجنوده فى ذهول ورعب ، أمام ذلك المشهد الرهيب ..

لقد بدا أمامهم كيان شبه بشرى ، بلا ملامح أو تفاصيل واحدة ..

فقط كتلة كبيرة من الدم ، فى حجم شاب بالغ ، تواجههم فى تحدّ عجيب ..

وبحركة آلية ، ودون أن يدرى ، ضغط السائق دوّاسة الوقود ، وقفزت سيارة دورية الشرطة إلى الأمام ، واندفعت نحو الكيان الدموى ، الذى انطلقت منه صرخة رهيبة ..

صرخة قادمة من أعمق أعماق قبور الدنيا كلها ..

ثم ارتطمت به السيارة بمنتهى العنف ..

ومع ارتطامها ، تمزّق جسده الدموى إربًا ..

تمزّق متحوّلاً إلى عدة قطع دموية ، تناثرت فى كل مكان فى الشارع ، وضابط الدورية يهتف بالسائق :

ـ ماذا فعلت أيها الأحمق ؟!

ومع هتافه ، ارتطمت بقعة دموية ضخمة بزجاج سيارة الشرطة الأمامى ، فى مشهد بشع للغاية ، جعل الجميع يحدقون فيها بذعر حقيقى ..

ولكن ذلك الذعر تحوّل إلى رعب كامل ، عندما انزلقت كتلة الدم فجأة ، ثم وثبت من السيارة ، واندفعت نحو الكتل الأخرى ، التى اتجهت نحو بعضها ، من كل مكان ، حتى التقت على مسافة متر واحد من جثة السكير ..

ثم التحمت ببعضها دفعة واحدة ..

ونهضت واقفة ..

نهضت بنفس حجمها السابق ، وتكوينها شبه البشرى ..

تكوين أشبه بجسد شاب بالغ ، بلا ملامح أو تفاصيل ..

وتجمدّ رجال الشرطة فى مكانهم ، وانطلقت ثلاث أو أربع صرخات ، من البنايات المطلّة على الشارع ، ثم أضيئت النوافذ والشرفات ، و ..

وتراجع الكيان الدموى شبه البشرى لحظة ..

ثم انزلق بنفس النعومة ، وبسرعة مذهلة ، نحو إحدى البنايات الضخمة ، ذات الطراز التقليدى القديم ، فهتف ضابط الشرطة ، وهو يستل مسدسه :

ـ امنعوه .. لا تسمحوا له بالفرار .

أطلق هتافه ، ووثب بمسدسه خارج السيارة ، وانطلق يعدو نحو البناية ، وتبعه جنوده بأقدام خائفة مترددة ، حتى بلغوا المكان ، وأضاءوا أنواره ، وراحوا يفتشون كل ركن فيه ..

ولكن المكان كان خاليًا تمامًا ..

ولم يكن هناك أثر لذلك الكائن ..

أدنى أثر ..

★ ★ ★

« ماذا تقول ؟! »

هتف الرائد (صفوت) بذهول ، وهو يحدّق فى وجه (أحمد) ، الذى زفر فى توتر بالغ ، قائلاً :

ـ تمامًا كما أخبرتك يا (صفوت) .. ذلك الشىء لم يمتصّ الدم وحده من جسد ضحيته ، وأنما امتصّ ، بوسيلة ما ، كل نخاع العظام أيضًا .. باختصار .. إنه يسعى خلف كل ما له

صلة بالدم وتكوينه .

سقط فك (صفوت) الأسفل بذهول أكثر ، وهو يهتف :

ـ مستحيل ! مستحيل ! ما الذى يمكن أن يفعل ببشرى هذا ؟!

انعقد حاجبا (أحمد) ، وهو يقول فى عصبية :

ـ ليس شيئًا من عالمنا .

احتقن وجه (صفوت) ، وهو يصيح :

ـ لا تحاول مرة أخرى إقناعى بخرافاتك هذه .

صاح فيه (أحمد) :

ـ أما زلت عنيدًا مكابرًا ؟!

صرخ (صفوت) :

ـ قلت مستحيل !

لم يكد يُطلق صرخته ، حتى ارتفع أزيز جهاز اللاسلكى الذى يحمله ، فرفعه إلى أذنه بسرعة ، وهو يهتف :

ـ من هناك ؟!

انعقد حاجباه بمنتهى الشدة ، وهو يستمع إلى محدّثه ، واحتقن وجهه مرة أخرى ، وبدا عليه توتر بالغ ، وهو يقول فى عصبية :

ـ سأحضر على الفور .

ثم أنهى الاتصال ، ورفع عينيه إلى (أحمد) ، قائلاً بصوت شاحب :

ـ لقد فعلها مرة أخرى .

اتسعت عينا (أحمد) ، وهو يتراجع بحركة حادة ، واختنقت الكلمات فى حلقه لبضع لحظات ، قبل أن يخلع معطفه ، قائلاً :

ـ هيا بنا .

وبعد لحظات ، كان كلاهما ينطلق نحو موقع الحادث الثانى ، دون أن يتبادلا كلمة واحدة ، وقد أدركا أنهما يواجهان كارثة ..

كارثة لها مفهوم آخر ..

وعالم آخر ..

★ ★ ★

« لقد حدث ما كنا نخشاه ..»

نطق رجل طويل ، قوى ، حاد الملامح ، العبارة ، فى صوت حمل طنًا من التوتر ، فزفر آخر عريض المنكبين ، وغمغم ، وهو يعقد كفيه خلف ظهره ، ويتطلّع عبر نافذة كبيرة :

ـ لقد علمت .

قال الطويل بنفس التوتر :

ـ أخشى أن الأمر قد أفلت من أيدينا .

قال عريض المنكبين فى مرارة :

ـ أمر طبيعى .

ثم استدار إلى الطويل ، مستطردًا :

ـ إننا نواجه أمرًا نجهل كل شىء عنه تقريبًا .

هزّ الطويل رأسه ، وجلس على أوّل مقعد صادفه ، وهو يقول :

ـ لقد تدرّبنا على مواجهة أقوى النوائب ، ولكن هذا الشىء لم يكن فى الحسبان قط ، حتى فى أبشع كوابيسنا .

تمتم عريض المنكبين :

ـ إنه أبشع كوابيسنا بالفعل .

ثم لوّح بكفه ، مستطردًا فى حنق :

ـ أننا لا نعلم حتى كيف يمكن أن نواجهه .

سأله الطويل فى حذر :

ـ وماذا عن الأمريكيين ؟!

سأله عريض المنكبين :

ـ ماذا عنهم ؟!

هزّ الطويل كتفيه ، قائلاً :

ـ أعتقد أن لديهم خبرة فى هذا المضمار .

ابتسم عريض المنكبين ابتسامة مريرة ، وهو يقول :

ـ فى أفلامهم فحسب ، وليس فى عالم الواقع .

زفر الطويل فى توتر ، وعاد يهزّ رأسه ، قائلاً :

ـ هذه المرة حدث الأمر فى شارع عام ، وفى وجود عشرات الشهود .

قال عريض المنكبين فى حدة :

ـ وماذا عن المرة السابقة ، هل كان حادث الفندق سريًا ؟!

أجابه الطويل فى سرعة :

ـ كلاً ولكن من الممكن تفسيره باعتباره جريمة قتل عادية .

عاد عريض المنكبين يبتسم ابتسامته المريرة ، قائلاً :

ـ هل تعتقد هذا ؟!

مطّ الطويل شفتيه ، وقلب كفيه ، وهو يقول فى عصبية :

ـ ماذا سنفعل إذن ؟! هل سنقف مكتوفى الأيدى ، ونترك كل هذا يحدث فى الطرقات ؟!

تطلّع إليه عريض المنكبين بضع لحظات فى صمت ، ثم عاد يلتفت إلى النافذة ، وهو يجيب فى توتر ملحوظ :

ـ ليس لدينا ما نفعله يا رجل ، سوى المتابعة ، ومواصلة البحث ، أو استنتاج الخطوة التالية ، فالأمر يفوق إدراكنا وقدراتنا ألف مرة ، ونحن مضطرون للانتظار ..

وزفر زفرة ملتهبة ؛ بدت وكأنها نابعة من أعمق أعماق توتره ، وهو يضيف :

ـ فقط الانتظار .

ثم رفع عينيه يتطلّع إلى السماء بنجومها المتألقة ..

السماء التى ينتظر منها الحل ..

الحل الوحيد ..

★ ★ ★

سرت ارتجافة باردة فى جسد الدكتور (أحمد) ، وهو يفحص جثة السكير ، التى خلت من أية نقطة دم كسابقتها ، وتنهّد فى توتر بالغ ، وهو يتطلّع إلى نظرة الرعب الهائلة فى العينين المتسعتين عن آخرهما ، قبل أن ينهض مغمغمًا :

ـ رباه ! متى ينتهى هذا الكابوس ؟!

لم يسمع (صفوت) عبارتـه ، وهو يلقـى عشرات الأسئلة على طاقم دورية الشرطة ، وبعض سكان الشارع ، الذين التفوا حوله هلعين مذعورين ، يلقون بدورهم سيلاً من الأسئلة ، حول ذلك الأمر الخارق ، الذى شاهدوه بأعينهم ..

وبخطوات ثقيلة ، انتزع (أحمد) نفسه من مكانـه ، واتجـه نحو (صفوت) ، الذى سأله فى توتر :

ـ نفس العلامات ؟!

أومأ (أحمد) برأسه إيجابًا ، فانعقد حاجبـا (صفوت) بشدة ، وهو يتمتم :

ـ رباه !

هتف ضابط دورية الشرطة فى عصبية :

ـ إننا لم نشاهد شيئًا كهذا ، إلا فى أفلام الرعب الأمريكية ، التى تُطير النوم من أعيننا ، أما فى عالم الواقع ..

قاطعه (صفوت) فى صرامة عصبية :

ـ صف ما رأيته للطبيب الشرعى .

خُيِّل إليه أن هذا هو السؤال ، الذى كان الجميع فـى انتظـاره منذ البداية ، فقد اندفعوا يتحدثون كلهم ، فى آن واحد تقريبًا ، وكل منهم يصف ما رآه ، فـى حمـاس وذعـر ، امتزجـا ليصنعـا لهجة عجيبة للغاية ..

ولكن الأكثر عجبًا أن الجميع قد اتفقوا على أوصاف واحدة ..

كيان شبه بشرى ، فى حجم شاب بالغ ، مكوَّن بالكامل مـن مادة حمراء قانية رهيبة ، بشعة ..

وبينما هم يلقون أوصافهم ، اندفعت إلى المكان سيارة كبـيرة ، تحمل شعار صحيفة يومية شهيرة ، فهتف (صفوت) فى سخط :

ـ هذا ما كان ينقصنا .

اندفع الصحفيون من السيارة ، نحو الجمع المحتشد ، فـتراجع (أحمد) بحركة متوترة ، وحـاول عبثًـا ترتيب أفكـاره ، ليجد ما يجيب به رجال الصحافة ، و ...

ولكن فجأة ، ظهر ذلك الضخم ..

رجل ضخم الجثة ، صـارم الملامـح ، اعترض طريق رجـال الصحافة فجأة ، وأشار بذراعيه فـى حزم صـارم ، وهـو يقـول بصوت خشن جاف :

ـ لا أحاديث صحفية أو صور .. النائب العام أصدر أمرًا بحظـر النشر فى هذا الحادث ، حتى انتهاء التحقيقات .

انطلقت هتافات السخط والاعتراض مـن الصحفيين ، إلا أنـه تجاهل كل هذا ، وهو يلتفت إلى السكان ، قائلاً بلهجة آمرة :

ـ هيا .. عودوا إلى منازلكم .. إنكم تفسدون الأدلة بتواجدكم هنا .

كان أسلوبه ولهجته يكفيان ، ليندفع الجميع عائدين إلى منازلهم ، فى حين التفت هو إلى طاقم دورية الشرطة ، قائلاً بنفس اللهجة :

ـ ستحضر دورية أخرى احتياطية لتحلّ محلكم ، أما أنتم فتوجّهوا فورًا إلى مديرية أمن (القاهرة) ، للإدلاء بأقوالكم فيما حدث ، و ..

قاطعه (صفوت) فى عصبية :

ـ مهلاً أيها السيّد .. إنك تلقى أوامرك هنا وهناك ، دون أن تفصح عن هويتك .. من تكون بالضبط ؟!

التفت إليه الرجل فى هدوء ، وتطلّع إليه بنظرة فاحصة حادة ، قبل أن يقول :

ـ الرائد (صفوت شاهين) .. أليس كذلك ؟!

قال (صفوت) بعصبية أكثر :

ـ إذن فأنت تعرف من أنا !! عظيم .. والآن من أنت ؟!

تجاهل الرجل سؤاله ، وهو يلتفت مرة أخرى إلى طاقم الدورية ، قائلاً بصرامة غاضبة عنيفة :

ـ ماذا تنتظرون ؟!

أسرع الجنود إلى سيارتهم ، وأدّى ضابطهم التحية العسكرية فى قوة ، وهو يهتف :

ـ أمرك يا سيِّدى .

ثم لحق برجاله ، وانطلقت بهم السيارة فورًا ، فى نفس اللحظة التى ظهرت فيها سيارة الدورية الاحتياطية عند الناصية ، فهتف (صفوت) فى عصبية :

ـ إنك لم تجب سؤالى بعد .

تطلّع إليه الرجل فى برود صارم ، جعله يهتف فى حدة :

ـ من أنت بالضبط ؟!

مع آخر حروف كلماته ،، سطع ضوء مصباح تصوير بغتة ، فاستدار الضخم إلى مصدره بحركة حادة ، ثم لوّح بذراعه فى الهواء ، فبرز أربعة رجال بغتة ، وكأنما نشئوا من العدم ، واندفعوا نحو المصوّر ، الذى تراجع فى ذعر ، هاتفًا :

ـ من حق الناس أن تعرف الحقائق .

انتزع الرجال الأربعة آلة التصوير منه فى صرامة ، ثم فتحوا غطاءها الخلفى ، وانتزعوا منها الفيلم ، فهتف (صفوت) :

ـ بأى حق تفعلون هذا ؟!

أجابه الضخم فى برود :

ـ وبأى حق تلقى أنت هذا السؤال ؟!

أخرج (صفوت) بطاقة هويته الرسمية من جيبه ، قائلاً :

ـ أنا ضابط مباحث ، و ....

قاطعه الضخم فى صرامة :

ـ ولقد تم إعفاؤك من التحقيقات ، فى هذه القضية .

اتسعت عينا (أحمد) فى دهشة ، فى حين صاح (صفوت) بكل الغضب :

ـ بأمر من .

تطلع الرجل إلى عينيه مباشرة ، وهو يجيب فى تحدٍ :

ـ بأمر السيد رئيس الجمهورية شخصيًا .

اتسعت عينا (صفوت) بدوره ، وهو يردّد ذاهلاً :

ـ رئيس الجمهورية ؟!

استغرق ذهوله لحظة ، عاد بعدها يقول فى حدة :

ـ وأين أمر رئيس الجمهورية هذا ؟!

أخرج الرجل من جيبه ورقة مطوية ، وفردها أمام وجه (صفوت) ، قائلاً :

ـ ها هو ذا .

حدّق (صفوت) فى الورقة ، وفى الشعار الرسمى الذى يعلوها ، وفى التوقيع أسفلها ، قبل أن يغمغم :

ـ يا إلهى !

طوى الرجل الورقة مرة أخرى ، ودسّها فى جيبه ، ثم أشار بيده ، فبرزت سيارة سوداء كبيرة ، من سيارات نقل الموتى ، عند الناصية ، واتجهت مباشرة نحو جثة السكير ، وأسرع الرجال الأربعة ينقلونها إلى السيارة ، فى حين التفت الضخم إلى (أحمد) ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة ، وهو يقول :

ـ معذرة يا دكتور (أحمد) .. سنتولّى نحن الاهتمام بالجثة هذه المرة .

حدّق (أحمد) فيه بدهشة ، لم تزل منها ذرة واحدة ، حتى انطلق الرجل مع رجاله الأربعة ، فى سيارة سوداء أخرى ، تبعتها سيارة نقل الموتى ، التى تحمل الجثة ، فهتف :

ـ رباه ! إنه يعرفنى أيضًا .

غمغم (صفوت) فى عصبية :

ـ لقد كنت على حق .

قال (أحمد) فى دهشة :

ـ بشأن مخلوقات الكواكب الأخرى ؟!

هزَّ (صفوت) رأسه نفيًا فى قوة ، قائلاً فى إصرار :

ـ كلاَّ .

ثم تابع السيارتين بدوره ، مضيفًا فى صرامة عصبية :

ـ بشأن أنهم يعلمون .

قالها وأطبق شفتيه مع (أحمد) فى صمت تام ..

صمت يحمل الكثير من التوتر ..

والقلق ..

والخوف ..

★ ★ ★

صمت طويل ثقيل ، خيم على ذلك المقهى الصغير ، فى حى (الحسين) ، حيث جلس (أحمد) و (صفوت) فى الخامسة والنصف صباحًا ، بعد أن أديا صلاة الفجر فى المسجد ..

كان كل منهما غارقًا فى لجة من الأفكار ، لا تختلف كثيرًا عما يغرق فيه رفيقه ..

(أحمد) كان يتساءل : أى نوع من المخلوقات هذا ، الذى ينمو بالدم وحده ؟!

الوصف ، الذى أدلى به الكل ، يعنى أن عينة الدم ، التى لم تتجاوز السنتيمترات العشرين ، منذ عشرة أيام فحسب ، قد صارت فى حجم شاب يافع ..

وأنها ما زالت فى لون الدم ..

من الواضح أن حجمها يتزايد ، كلما التهمت المزيد منه ..

وأنها تواصل البحث عن المزيد ..

والمزيد ..

والمزيد ..

والله (سبحان وتعالى) وحده يعلم ، متى وكيف يمكن أن ينتهى هذا الأمر ..

كل ما يحدث هو أن ذلك الكائن يسعى للنمو ..

النمو بلا حدود ..

وأنه يمتلك قدرة عجيبة ، تشبه قدرة حيوان (الهيدرا) المائى ، الذى يمكن أن تنمو كل خلية مقتطعة منه ، لتصنع كائنًا جديدًا منفصلاً(*) ..

وهذا قد يعنى أنه سينمو إلى النهاية ..

نهاية الكون ..

ونهايتنا ..

(*) حقيقة علمية .

ولكن ما من مخلوق خالد أبد الدهر ..

كل المخلوقات تموت ..

الخالق وحده حى لايموت ..

ولقد قتل (صفوت) ذلك المخلوق ذات مرة ..

وكان من الممكن أن ينتهى الأمر عند هذه النقطة ..

لولا عينة الدم ..

مرور (صفوت) بذاكرته ، جعله يرفع عينيه ، متطلّعًا إليـه ، ومتسائلاً : تُرى فيم يفكّر فى صمته هذا ؟!

ووسط سحب الدخان ، كانت أفكار (صفوت) تنطلق بعيدًا ..

إنهم يعلمون ..

المسئولون يعلمون ..

الورقة التى فردها ذلك الضخم أمامه ، لم تكن تحوى أمرًا مـن رئيس الجمهورية بالفعل ..

بل كانت تحمل تفويضًا للضخم ، من مدير أكبر وأقوى جهـاز أمن فى البلاد ..

المخابرات العامة ..

وهذا يثير دهشته ..

وحيرته ..

وخوفه ..

ما شأن المخابرات العامة بأمر كهذا ؟!

ما شأن جهاز ، مهمته حماية أمن وسلامة البلاد ، بمجموعة من حوادث القتل الداخلية ، مهما بلغ عنفها وغموضها ؟!

ما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

بل وما الذى يمكن أن يعنيه كل شىء ؟!

أمر النائب العام بمنع النشر ..

إعفاؤه من مواصلة التحقيقات ..

اقتحام المخابرات العامة للأمر ..

ما الذى يمكن أن يعنيه كل هذا ؟!

انطلق أزيز جهاز اللاسلكى ، فـى تلك اللحظـة ، فـانتفض (صفوت) فى مجلسه والتقطه فى حدة ، قائلاً :

ـ ماذا يريدون الآن ؟!

ضغط زر الاتصال ، وهو يقول :

ـ الرائد (صفوت شاهين) ..

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يستمع إلى محدثّه ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ فليكن .. سأحضر على أية حال .

أنهى الاتصال ، فى توتر بالغ ، فسأله (أحمد) فى لهفة قلقة :

ـ ضربة جديدة ؟!

أجابه بإيماءة رأس ، قائلاً فى عصبية :

ـ لن يمكنك أن تصدّق من ضحيته الجديدة .

جفَّ حلق (أحمد) ، وهو يسأله :

ـ من ؟!

مال (صفوت) نحوه ، مجيبًا :

ـ مدير الفندق .

واتسعت عينا (أحمد) عن آخرهما ، وهو يرتدّ كالمصعوق ..

لقد كانت بالفعل مفاجأة ..

مفاجأة مذهلة .

★ ★ ★

٦ ـ الانتقـام ..

ارتفع هدير مراوح الهليوكوبتر العسكرية ، التى تقلّ رئيس الجمهورية ، فى السادسة والنصف صباحًا ، وهى تحلّق فى سماء مدينة (الأقصر) ، قبل أن تنحرف غربًا ، وتنطلق فى اتجاه الواحات الخارجة ، لخمسين كيلو مترًا ، ثم تميل جنوبًا ، لتبلغ تلك المنطقة ، التى أحيطت بدائرة واسعة من الأسلاك الشائكة ، التى أقيمت على عجل ، لتعزلها عن كل ما حولها ، وحوصرت بعدة فرق من قوات الجيش ، بكامل عدتها وعتادها ، على نحو يوحى بمدى أهمية المنطقة وخطورتها ..

وفور هبوط الهليوكوبتر ، اندفع نحوها ضابط كبير برتبة لواء أركان حرب ، وأدّى التحية العسكرية للرئيس فى قوة ، فسأله الرئيس فى اهتمام بالغ :

ـ أما زال ذلك الشىء هنا ؟!

أجابه الرجل فى حزم ، وهو يشير بيده :

ـ إنه لن يذهب بعيدًا يا سيادة الرئيس .

مطَّ الرئيس شفتيه ، مغمغمًا :

ـ من يدرى .

كان الجميع يتحركون بسرعة كبيرة ، فى تلك الساعة المبكّرة من الصباح ، وهم يتجهون إلى قلب دائرة الحصار ، حتى توقفوا أمام حفرة كبيرة ، أشار إليها اللواء ، وهو يقول فى حزم :

ـ ها هو ذا .

تطلّع الرئيس فى دهشة إلى المركبة الكبيرة ، ذات التكوين العجيب ، والتى بدت محطّمة تمامًا تقريبًا ، فى قلب الحفرة ، قبل أن يتمتم :

ـ سبحان اللّه (العلى القدير) .. يخلق مالا نعلم .

أشار اللواء بيده ، قائلاً:

ـ هل ترغب فى إلقاء نظرة قريبة يا سيادة الرئيس ؟!

أجابه الرئيس ، وهو يهبط الحفرة بالفعل :

ـ بالتأكيد .

كانت المركبة كبيرة إلى حد ما ، فى حجم طائرة (إيرباص) ضخمة ، مصنوعة من مادة لامعة ، لا تبدو مألوفة ، وبداخلها أجهزة وأدوات متطوّرة للغاية ، لا مثيل لها على كوكب الأرض ..

أما الجزء الخلفى بأكمله ، فقد كان يحوى عشرات الأوعية البلورية الكبيرة ، التى تحوى كلها مخلوقات عجيبة ، لقيت مصرعها من جراء سقوط المركبة ، وتحطّمها فى الصحراء الغربية ..

فيما عدا وعاء واحدًا ..

وعاء أكبر قليلاً من الآخرين ، تحطّمت واجهته ، وخلا من أية مخلوقات .. وفى صوت خافت ، قال مدير المخابرات ، وهو يشير إلى الوعاء المحطّم :

ـ من الواضح أنها مركبة فضائية من عالم آخر ، مهمتها جمع عينات من المخلوقات الحية ، فى الكواكب الأخرى .

غمغم الرئيس ، وهو يهزّ رأسه ، محاولاً تصديق ما يراه :

ـ (سبحان اللّه) .. لولا أننى أرى هذا بنفسى ، لما تصوّرت حدوثه قط ، إلا فى أفلام وروايات الخيال العلمى .

مطّ مدير المخابرات شفتيه ، مغمغمًا :

ـ كلنا هذا الرجل يا سيادة الرئيس .

ثم تابع بنفس الاهتمام والخفوت :

ـ الفحص الأوّل يشير إلى أن هذه المركبة معدّة بحيث يقودها اثنان من المخلوقات العاقلة ، لقى أحدهما مصرعه مع السقوط ، فى حين اختفى الثانى ، وكذلك المخلوق الذى كان يضمّه هذا الوعاء المحطّم .

سأله الرئيس فى قلق :

ـ أتعتقد أنهما سبب ما نواجهه الآن ؟!

أومأ الرجل برأسه ، مجيبًا :

ـ بكل تأكيد يا سيادة الرئيس .

تنهَّد الرئيس ، قائلاً :

ـ وأيهما المسئول فى رأيك .

غمغم الرجل :

ـ وهل يصنع هذا فارقًا ؟!

هزَّ الرئيس رأسه ، متمتمًا :

ـ لست أعتقد هذا .

ثم لوَّح بذراعه كلها ، متابعًا فى عصبية :

ـ ولكن لو أن المركبة قد سقطت وتحطَّمت هنا ، فلماذا يحدث كل هذا هناك ، فى (القاهرة) ؟!

تردَّد مدير المخابرات لحظة ، قبل أن يقول فى حذر :

ـ لدى نظرية فى الواقع ..

لم يستطع إكمال عبارته ، فقال الرئيس يستحثه على المواصلة :

ـ كلى آذان مصغية .

حسم هذا تردُّد الرجل ، وقال :

ـ أعتقد أن الخطر الحقيقى الذى نواجهه ، هو ذلك المخلوق ، الذى فرَّ من الوعاء المحطم ، والذى يسعى للفرار ، على سطح كوكب يجهله ، وقائد المركبة المتبقِّى يحاول استعادته بشكل أو آخر ، وهو الذى نسف رأسه ، عندما عثر عليه فى الفندق .

انعقد حاجبا الرئيس ، وهو يدرس هذا الاحتمال ، فى حدود معلوماته ، وقدرته على تخيُّل ما لم يواجهه فى حياته قط ، قبل أن يشير بسبَّابته ، قائلاً :

ـ فى هذه الحالة ، لابد أن نفترض أن كليهما يمتلك القدرة على تقمُّص الهيئة البشرية ، ولكن الملاَّح لديه وسيلة لتعرُّف عينته ، على نحو أو آخر ، ولهذا عثر عليه فى الفندق .

قال مدير المخابرات فى حماسة :

ـ بالضبط ، ولكن الملاح يجهل ـ إلى حد ما ـ طبيعة عينته بالكامل ، بدليل أنه لم يتصوَّر قدرتها على العودة إلى النشاط مرة أخرى .

التقى حاجبا الرئيس أكثر ، وهو يقول :

ـ وربما يجهل عودتها بالفعل .

تنهَّد مدير المخابرات ، قائلاً :

ـ ليت باستطاعتنا إبلاغه بوسيلة ما .

هزَّ الرئيس رأسه ، قائلاً :

ـ ليس كل ما يتمناه المرء يدركه .

ثم استدرك فى حزم :

ـ ولكن هناك وسيلة حتمًا ؛ للقضاء على هذا الكابوس .

عضَّ مدير المخابرات شفتيه لحظة ، قبل أن يجيب فى أسف :

ـ المشكلة أن ذلك القاتل الدموى لا يتحرَّك وفق منهج مدروس ، بحيث يمكننا تتبُّعه وتعقُّبه .. إنه يختار ضحاياه عشوائيًّا ، ومن أحياء مختلفة ، ولو أننا حددنا مساره مرة واحدة ، فربما ..

قاطعه رنين هاتفه المحمول الخاص ، فالتقطه من جيبه فى سرعة ، وهو يقول فى لهفة :

ـ ربما هناك جديد .

غمغم الرئيس فى توتر :

ـ جديد فى أى اتجاه ؟!

ثم انعقد حاجباه ، وهو يتابع الكلمات المقتضبة ، التى تبادلها مدير المخابرات مع محدِّثه ، قبل أن ينهى المحادثة قائلاً :

ـ يبدو أننا قد التقطنا طرف خيط .

سأله الرئيس فى لهفة :

ـ هل عثرتم عليه ؟!

هزَّ المدير رأسه نفيًا ، وأجاب :

ـ بل ارتكب حادثة قتل أخرى .

هتف الرئيس فى غضب :

ـ وهل تعتبر هذا طرف خيط ؟!

أومأ مدير المخابرات برأسه ، قائلاً :

ـ بالتأكيد .

ثم مال نحو الرئيس ، متابعًا فى حزم :

ـ إنها أوَّل حادثة تتبع مسارًا معروفًا .

وكان على حق فى قوله هذا ..

فحادثة قتل مدير الفندق ، كانت بالفعل طرف خيط ..

خيط من الدم ..

★ ★ ★

بـدا (صـفوت) شـديد العصبية ، وهـو يتلفَّت حـولـه ، فـى حجرة مدير الفنـدق الفـاخر ، المطـلّ على النيل ، قائلاً للدكتـور (أحمد) :

ـ أسرع يا رجل .. أنا واثق من أنهم سيظهرون ، بين لحظـة وأخرى .

غمغم (أحمد) فى توتر :

ـ إننى أبذل قصارى جهدى ، ولكن من الواضح أنه لم يكتـف بالدم ونخاع العظام هـذه المـرة .. لقد حطَّم قـاعدة الجمجمـة ، وامتصَّ منها المخ أيضًا .

حدَّق (صفوت) فيه ، هاتفًا :

ـ ماذا ؟!

أجابه فى عصبية :

ـ المخ .. لقد حطَّم جزءًا صغيرًا من قاعدة الجمجمة ، وسـحب المخ كله عبره .

سأله (صفوت) بدهشة :

ـ وماذا سيفعل به ؟!

أجابه (أحمد) :

ـ يحتاج إليه حتمًا للنمو .

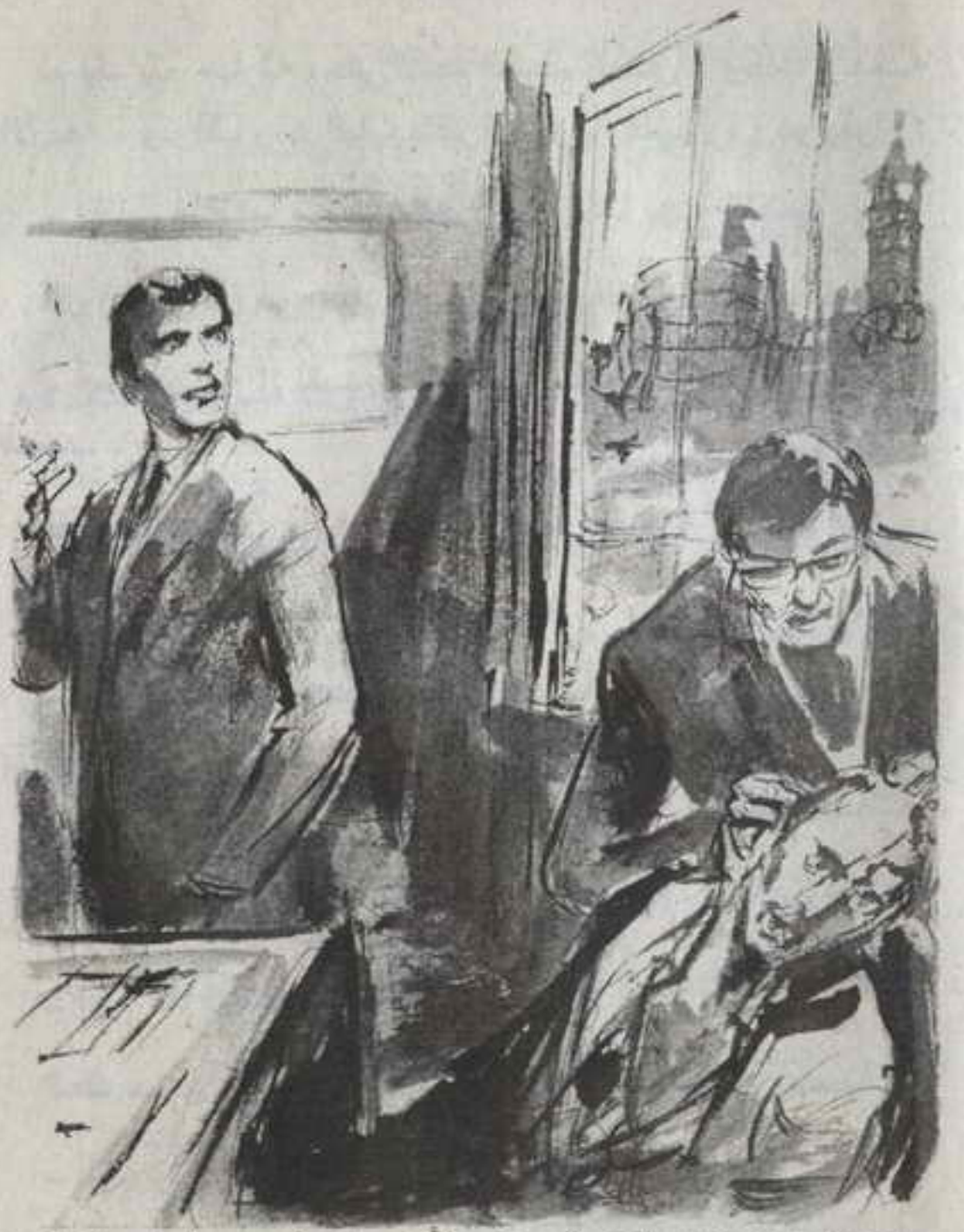

بدا (صفوت) شديد العصبية ، وهو يتلفَّت حوله ، فى حجرة مدير الفندق الفاخر ، المطلّ على النيل ، قائلاً للدكتور (أحمد) : - أسرع يا رجل ..

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى اقتحم الضخم المكان ، وخلفه رجالـه الأربعة ، وتوقّف عند الباب بنظرة صارمة قاسية ، وهو يقول :

ـ أظننى أبلغتكما من قبل أنه لا شأن لكما بهذه القضية .

قال (صفوت) فى عصبية ، حاول أن يغلّفها بلهجة ساخرة :

ـ أية قضـية ؟! لقـد كنـا نقضى بعض الوقت فى الفندق فحسب ، و ...

قاطعه (أحمد) ، وهو يقول بصرامة مفاجئة :

ـ هذا لن يفيد .. إننا نعلم كل شىء .

تسلّلت لمحة من السخرية إلى ابتسامة الرجل وصوته ، وهو يقول :

ـ تعلمون ماذا ؟!

أجابه (أحمد) فى تحد :

ـ نعلم أننا نواجه مخلوقًا غير بشرى .

انعقد حاجبا الضخم فى توتر ، فتابع (أحمد) فى عصبية :

ـ مخلوق من عالم آخر .

ازداد انعقاد حاجبى الضخـم ، وهـو يرمقهمـا بنظـرة صارمـة غاضبة ، قبل أن يشدّ قامته ، قائلاً :

ـ أعتقد أن هذا يحتاج إلى حديث طويل .

ثم قسا صوته على نحو مخيف ، وهو يضيف :

ـ فى مكان آخر .

ومع قوله ، ارتفعت فوهات مسدسات الرجال الأربعة ، فـى وجهى (أحمد) و(صفوت) ، مـع نظرات صارمـة متحفزة ، جعلت (صفوت) يهتف فى عصبية :

ـ ماذا تفعلون أيها الحمقى ؟! أنا ضابط شرطة .

مدّ الضخم يده إليه ، قائلاً فى صرامة :

ـ مسدسك أيها الرائد .

هتف (صفوت) فى عناد :

ـ ليس هذا من حقك .

انعقد حاجبا الضخم بضع لحظات ، فى غضب شـديد ، ثم لـم يلبث أن خفض يده ، قائلاً فى هدوء مباغت عجيب :

ـ حيث سنذهب ، لا يصح أن يحمل أى شخص سلاحًا ناريًا ..

ثم كرّر فى حزم :

ـ أى شخص .

مضت لحظة من الصمت ، تعلّقت خلالها عينا (صفوت) بعينى الرجل ، قبل أن يمدّ الأوّل يده إلى حزامه ، فينتزع منه مسدسه ، ويناوله للضخم ، الذى ابتسم ، قائلاً :

ـ أحسنت القرار .

والعجيب أنه ، وعلى الرغم من كل ما يحيط بهما من ظروف ، شعر (أحمد) و (صفوت) فى تلك اللحظة ، بالاطمئنان والأمان ..

إلى حد ما ..

* * *

« كيف تفعل هذا دون استشارة ؟! » .

هتف عريض المنكبين بالعبارة فى حدة ، فى وجه الضخم ، الذى شدّ قامته فى حزم ، مجيبًا :

ـ كان هذا أفضل ما يمكن عمله .. إنهما يعلمان .

صاح به عريض المنكبين :

ـ بل هما يخمنان فحسب .

قال الضخم :

ـ تركهما ، بعد كل ما علماه ، كان أكثر خطورة .

لوّح عريض المنكبين بذراعه ، قائلاً فى حنق :

ـ يبدو أن الأمر قد أفلت منا بالفعل .

نهض الطويل من مقعده ، قائلاً :

ـ لست أعتقد هذا .

هتف عريض المنكبين :

ـ بعد أن رأى كل هؤلاء ما حدث ؟!

هزّ الطويل كتفيه ، قائلاً :

ـ وما الذى رأوه ؟! ظاهرة عجيبة ، سيروونها كما يروون قصص وحكايات العفاريت والأشباح .. مجرّد قصص ، لا دليل على واقعها وصحتها ، ورجال الشرطة سيكتمون الأمر ، بحكم وظيفتهم ، وخشيتهم أن يُتهموا بالحماقة وضعف العقل ، أو حتى بالخوف والجبن .

أشار عريض المنكبين بذراعه كلها ، قائلاً فى حنق :

ـ وماذا عن ضابط المباحث والطبيب الشرعى .. لقد سمعت بنفسك أنهما يعلمان .. أو على الأقل يستنتجان ما نواجهه .

قال الطويل فى سرعة :

ـ عظيم .. هذا يعنى أن بإمكاننا الاستعانة بهما ، دون أن نخشى شيئًا .

انعقد حاجبا الضخم فى دهشة ، فى حين تطلّع عريض المنكبين لحظة إلى الطويل فى صمت ، ثم استدار يتطلّع عبر النافذة لدقيقة أو يزيد ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ فليكن .. سأذهب لمقابلتهما .

وشرد ببصره وأفكاره بضع لحظات ، ثم أضاف فى عصبية :

ـ إننا نحتاج إلى طبيب شرعى على الأقل .

سأله الضخم فى قلق :

ـ وهل ستشرح لهما الأمر كله ؟!

أجابه عريض المنكبين فى صرامة ، وهو يلتفت إليه بحركة حادة :

ـ كلاً بالطبع .

ثم عاد إلى النافذة متابعًا فى صرامة :

ـ أنت تعرف القاعدة الذهبية فى عالمنا ..

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :

ـ المعرفة بقدر الحاجة ... فقط .

★ ★ ★

« تجربة فاشلة ، من تجارب هندسة الوراثة .. »

ألقى عريض المنكبين العبارة فى حسم ، أمام (أحمد) و (صفوت) ، فانعقد حاجبا الأوّل فى شدة ، فى حين هتف الثانى فى حيرة :

ـ هندسة ماذا ؟!

ابتسم عريض المنكبين ، وهو يتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ أنا مثلك تمامًا ، أجهل الكثير من التفاصيل العلمية والفنية ، عن هذه الأمور ، ولكن كل ما أعلمه هو أن تلك التجارب الخاطئة ، قد أسفرت عن وجود وحش طليق ، أشبه بمصّاص الدماء .. وحش يعتمد فى وجوده على كل خلايا جسده ، وليس على المخ وحده .

هتف (صفوت) مبهورًا :

ـ يا إلهى ! أهندسة الوراثة هذه بشعة إلى هذا الحد ؟!

قلب عريض المنكبين كفيه ، وكأنما يعلن عجزه عن الفهم ، فى حين قال (أحمد) فى حذر :

ـ وهل لدينا فى (مصر) التكنولوجيا اللازمة ، للقيام بتجارب معقّدة كهذه ؟!

أجابه عريض المنكبين فى هدوء :

ـ إنه مشروع مشترك .. مصرى أمريكى .

هتف (صفوت) :

ـ كل الكوارث تأتى من الأمريكيين .

هزَّ الرجل كتفيه العريضين ، دون أن يُعلِّق على عبارة (صفوت) ، ثم التفت إلى (أحمد) ، قائلاً :

ـ الواقع أننا نحتاج إلى تعاونك يا دكتور (أحمد) ، باعتبارك قد أصبحت خبيرًا فيما يحدث .. لقد نقلنا جثة مدير الفندق إلى هنا ، ولدينا قاعة مجهَّزة لفحصها ، وستجد كل الأدوات اللازمة لذلك ، و ...

قاطعه (أحمد) فجأة :

ـ وماذا عن القاتل ؟!

انعقد حاجبا الرجل ، وهو يسأله فى حذر :

ـ أى قاتل ؟!

أجاب (أحمد) فى عصبية :

ـ ذلك الذى نسف رأس المخلوق فى الفندق .. أهو جزء من تجارب هندسة الوراثة أيضًا ؟!

ازداد انعقاد حاجبى الرجل بضع لحظات ، ثم لم يلبث أن مال نحو (أحمد) ، قائلاً فى صرامة شديدة :

ـ ما دمت ستتعاون معنا ، فلابد أن تتعلَّم حقيقة أساسية هنا .. لا أحد يعلم إلا بقدر ما يكفيه فحسب .

قال (أحمد) فى عصبية :

ـ ألنا مضطر للتعاون ؟!

تراجع الرجل فى مقعده ، قائلاً فى حزم :

ـ لا أحد مضطر لأى شىء هنا ، ولكن الوطن يناديك ، فهل أنت مستعد لتلبية ندائه .

هتف (صفوت) فى حزم وحماس :

ـ كلنا رهن إشارة الوطن .

بدا التوتر أكثر وأكثر على وجه (أحمد) ، فسأله عريض المنكبين فى حزم صارم :

ـ وماذا عنك ؟

صمت (أحمد) بضع لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ أنا مستعد لفعل كل ما تريدون .

تراجع الرجل ، قائلاً :

ـ عظيم .. ستتولّى فورًا فحص جثة المدير ، واستخراج التقرير الفنى ، بأسرع وقت ممكن ، أما بالنسبة لك أيها الرائد ، فستتولّى التحقيق مرة أخرى ، مع الحرص على السرية المطلقة ، ومع ملاحظة أنك تعمل فعليًا لحسابنا ، وكل تقاريرك ستوجّه إلينا مباشرة ، وسيتم إبلاغ رؤسائك بهذا ، وصدقانى .. إنكما تقدمان بهذا خدمة للوطن .. خدمة جليلة .

حاول (أحمد) أن يبتسم مجاملاً ، إلا أن وجهه عجز عن رسم تلك الابتسامة الزائفة على شفتيه ؛ فقد كان عقله ينبئه بأن هناك الكثير مما يخفى الرجل ..

الكثير جدًا ..

★ ★ ★

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثامنة والنصف صباحًا ، عندما اتجه الدكتور (حسن وهبى) إلى المرآب الملحق بفيلته الأنيقة ، وزوجته تهتف به من النافذة المطلّة على الحديقة :

ـ حاول ألا تتأخّر الليلة .. شقيقتى وزوجها سيقضيان السهرة معنا ، ولا داعى لأن يتصوّرا أنك ترفض التواجد معهما ، عندما حضرت مع أوّل نسمات الصباح ، فى المرة السابقة .

لوّح بيده فى ضجر ، قائلاً :

ـ سأبذل قصارى جهدى .

مطّ شفتيه فى حنق ، وهو يتجه إلى سيارته الكبيرة ، مغمغمًا :

ـ يا للسخافة ! الكل منشغل بالحفلات والسهرات ، والبحث عن وسائل الترفيه والتسلية ، ولا أحد يتذكّر أننى طبيب جرّاح ، ومدير مستشفى كبير .

استقلّ السيارة ، وهو يطلق زفرة محنقة ، وأدار المحرّك ، و ...

وفجأة ، انتفض جسده فى عنف ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدّق فى مرآة السيارة الداخليه ، التى نقلت إليه مشهدًا بالغ البشاعة ..

مشهد وجه بلا ملامح ، فيما عدا عينين بلون الدم ، تحدّقان فيه بنظرة ملؤها البغض والكراهية ..

وانفرجت شفتا الدكتور (حسن) ، ليطلق صرخة ذعر ، وهو يدفع جسده جانبًا ، محاولاً القفز من السيارة ..

ولكن يدًا دامية باردة ، كتمت أنفاسه بغتة ، والتصقت بوجهه على نحو عجيب ، فى حين قفزت يد أخرى تقبض على عنقه ،

وتعتصره فى قوة ، فاتسعت عيناه فى رعب هائل ، وراح يضرب الهواء بذراعيه فى عنف واستماتة ..

ثم فجأة ، شعر بذلك الألم الرهيب فى صدره ، فجحظت عيناه عن آخرهما ، حتى كادتا تثبان من محجريهما ، وأدرك أن اليد الثانية قد تخلّت عن عنقه ..

أدرك هذا فى لحظة واحدة ..

لحظته الأخيرة ..

* * *

رفع الرائد (صفوت) عينيه فى دهشة ، يتطلّع إلى الدكتور (أحمد) ، الذى بدا شديد الإرهاق والتوتر ، وهو يقف أمامه شاحب الوجه ، أشعث الشعر ، وقد نمت شعيرات لحيته على نحو ضاعف من شحوبه وجحوظ عينيه ، فهبَّ (صفوت) من مكانه ، وهو يجذب مقعدًا ، ويدفعه إليه ، هاتفًا .

ـ يا إلهى ! اجلس يا رجل .. إنك تبدو كمن لم ينم لشهر كامل .

جلس (أحمد) على المقعد ، وهو يقول بصوت شاحب :

ـ كان ينبغى أن أعود إلى منزلى على الفور ، ولكننى أردت أن ألتقى بك أوّلاً ، و ... ، و ...

هتف (صفوت) :

ـ التقط أنفاسك أوّلاً يا صديقى .. يا إلهى .. إنك تحتاج إلى قدح من القهوة المركّزة فورًا .

أشار (أحمد) بيده ، قائلاً :

ـ وقرص من الأسبرين .

هتف (صفوت) ، وهو يضغط زرًّا على مكتبه :

ـ بالتأكيد .

ألقى أوامره إلى جندى الخدمة بإحضار ما طلبه (أحمد) ، ثم جلس خلف مكتبه ، يسأله فى اهتمام قلق :

ـ ماذا حدث ؟!

هزّ (أحمد) رأسه ، وتراجع فى مقعده ، وهو يطلق زفرة متوترة ، قائلاً :

ـ الأمر أبشع مما كنا نتصوّر .

سأله فى قلق شديد :

ـ ماذا تعنى ؟!

لوّح (أحمد) بيده ، قائلاً :

ـ ذلك الوغد ليس مصاص دمـاء حقيقى فحسب ، ولكنـه ينتزع كل ما يمكنه انتزاعه من ضحيته ، على نحو بشع .. لقد قمت بتشريح جثة مدير الفندق ، وأنا أتصوَّر أنه قد فقد دمه ونخاع عظامه ومخه فحسب ، ولكننى فوجئت بأن جسده يخلو من الكليتين ، والكبد أيضًا .

اتسعت عينا (صفوت) ، وهو يتراجع فى حدة ، هاتفًا :

ـ رباه ! هل التهمهم ؟!

هزَّ (أحمد) رأسه ، مجيبًا :

ـ بل امتصَّهم :

هتف (صفوت) .

ـ امتصَّ كليتين وكبدًا ؟!

أومأ (أحمد) برأسه ، قائلاً فى مرارة مرهقة .

ـ إننى لم أعثر سوى على فتحات صغيرة دقيقة ، على جانبى الجسم ، ولا توجد أية فتحات تكفى لانتزاع الكليتين والكبد .

تمتم (صفوت) :

ـ يا إلهى !

نهض (أحمد) من مقعده ، وراح يدور فى الحجرة فى توتر ، وهو يقول :

ـ إنهم يخدعوننا ... إنها ليست تجارب هندسة وراثة كما يدَّعون .. الأمر يتجاوز هذا بكثير .

سأله (صفوت) فى حذر :

ـ ماذا تعنى ؟!

استدار إليه (أحمد) فى حدة ، وقال فى عصبية :

ـ إننى لم أتنازل عن نظريتى بعد .

سأله (صفوت) فى حذر :

ـ أية نظرية ؟!

أجابه فى حدة :

ـ الكائنات الخارجية .

ضرب (صفوت) جبهته براحته ، هاتفًا :

ـ لا .. ليس مرة أخرى .

صاح (أحمد) :

ـ هذا هو التفسير الوحيد .

عاد جندى الخدمة بالقهوة والأسبرين فى تلك اللحظة ، فبدت عليه الدهشة ، من أسلوب (أحمد) ولهجته ، ولكن (صفوت) صاح به فى صرامة :

ـ اترك كل شىء هنا ، وانتظر فى الخارج .

أسرع الجندى ينفذ الأمر ، ويهرع إلى الخارج ، فى حين قال (صفوت) فى توتر :

ـ اسمع يا صديقى .. ربما يميل عقلك إلى ذلك التفسير الخرافى العجيب ، ولكن الواقع يختلف تمامًا .. إنها تلك الهندسة الموروثة ، التى ..

قاطعه (أحمد) فى عصبية :

ـ الهندسة الوراثية .

لوَّح (صفوت) بيده ، قائلاً :

ـ أيًا كان اسمها .. المهم أنها المسئولة عما حدث ، كما أخبرونا هناك ، فى الـ ...

قاطعه (أحمد) مرة أخرى فى حدة :

ـ كذب .. كل هذا مجرَّد كذب .. إنهم يحاولون إخفاء الحقائق .. ولكنهم يعلمون .. يعلمون أنهم يواجهون مخلوقات من الفضاء الخارجى .. يعلمون .. يعلمون ..

ربَّت (صفوت) على كتفه ، قائلاً :

ـ اهدأ يا صديقى .. اهدأ .. ما رأيك لو استبدلنا بالقهوة كوبًا من النعناع الدافئ ، أو ...

دفع (أحمد) يده بعيدًا ، وهو يهتف فى غضب :

ـ إنك لا تصدقنى .

زفر (صفوت) ، وقلب كفيه ، قائلاً :

ـ إننى أبذل قصارى جهدى ، ولكن ..

انطلق أزيز جهاز اللاسلكى فى هذه اللحظة ، ليقطع عبارته ، فالتقطه متسائلاً :

ـ ماذا هناك هذه المرة ؟!

اتسعت عيناه عن آخرهما ، ووثب من مكانه ، صارخًا :

ـ ماذا تقول ؟! مستحيل ! أنا قادم على الفور .

حدَّق (أحمد) فيه ، متسائلاً فى هلع :

ـ من هذه المرة ؟!

لوَّح (صفوت) بذراعه ، هاتفًا :

ـ الدكتور (حسن) .. هل تذكره ؟! إنـه ذلـك الطبيب ، فـى المستشفى الكبير .. لقد .. يا إلهى ! لقد انتزع ذلك الوغد قلبه ، بعد أن امتصَّ كل قطرة دم فى جسده .

اتسعت عينا (أحمد) عن آخرهما ، حتى بدا فى هيئته هذه ، كصورة مجسَّمة للرعب والهلع ، وهو يقول :

ـ رباه ! الدكتور (حسن) .. ولكن هذا مستحيل ! مستحيل !

ثم أمسك كتفى (صفوت) فى قوة ، هاتفًا :

ـ ألا تدرك ما يعنيه هذا يا رجل ؟! إنه يهدم نظرية هندسة الوراثة هذه .. يهدمها من أساسها ، و ...

واتسعت عيناه مرة أخرى ، فى ذعر بـلا حـدود ، وهـو يتراجع ، قائلاً :

ـ إنه ينتقم .. يا إلهى ! إنه ينتقم .. لقد قتل مدير الفندق ، ثم الدكتور (حسن) ، ولم يبق أمامه سوى .. سوى ..

وارتجفت كل ذرة فى كيانه ، وهو يحدِّق فى وجه (صفوت) ، مضيفًا :

ـ سواتا .

وانتقلت ارتجافته إلى (صفوت) ..

وبمنتهى العنف .

★ ★ ★

٧ ـ عالم آخـر ..

« من السرب السابع إلى القاعدة ... أثناء تدريبات الاختراق ، تم رصد جسـم طـائر مجهول الهويـة .. نطلب الإذن بمطاردتـه فورًا .. »

« من القاعدة إلى السرب السـابع .. مـا الذى تعنيـه بجسـم طائر مجهول الهوية ؟! »

« من السرب السابع إلى القاعدة .. أمامنا جسم ضخم ، فـى حجم حاملة طائرات ، لـه شكل أشبه بالسيجار الهـائل ، وهـو يتجه مباشرة نحو الجنوب الغربى ، عند الساعة الثامنة .. »

« من القاعدة إلى السرب السابع .. ذلك الجسم لا يبدو علـى شاشة الرادار .. هل يمكنكم رؤيته بوضوح .. »

« من السرب السابع إلى القاعدة .. نحن نرصده بكل وضوح ، وننطلق بأقصى سرعتنا ، فى محاولة للحفاظ على المسافة بيننـا وبينه ، وعلى الرغم من هذا ، فهى تتسع بسرعة كبيرة .. »

« من القاعدة إلى السرب السابع .. واصلوا تتبعكم لذلك الجسم المجهول ، دون أية محاولة للاحتكاك أو الاشتباك ، لحين صـدور أوامر أخرى » ..

« رباه ! هذا مستحيل ! » ..

« من القاعدة إلى السرب السابع .. ما الذى يحدث عندك بالضبط ؟! » ..

« من السرب السابع إلى القاعدة .. ذلك الجسم انحرف فجأة بزاوية قائمة .. قائمة تمامًا .. أعلم أن هذا مستحيل عمليًا ، تحت أية مقاييس ، ولكننى أقسم إنه فعلها ، وهو يتجه نحو الواحات الخارجة مباشرة .. »

« من القاعدة إلى السرب السابع .. توجد منطقة عسكرية محظورة ، وبالغة السرية ، بالقرب من الواحات الخارجة .. حاولوا منع ذلك الجسم المجهول من بلوغها بأى ثمن .. »

« من السرب السابع إلى القاعدة .. كيف يمكننا منعه ، ونحن عاجزون حتى عن بلوغه .. بل إن سرعته تتجاوز سرعة صواريخنا نفسها .. »

« من القاعدة إلى السرب السابع .. حاولوا منعه بأى ثمن .. هل تسمعنى ؟! بأى ثمن .. »

« من السرب السابع إلى القاعدة .. كنا نتمنى أن نفعل ، ولكن تلك المنطقة المحظورة تبدو أمامنا بالفعل ، وذلك الجسم توقّف فوق منتصفها مباشرة .. يا إلهى ! إننا نلمح جسمًا فضائيًا مجهولاً ، يستقر داخل حفرة كبيرة ، و ... »

« من القاعدة إلى السرب السابع .. امنع ذلك الجسم المجهول بأى ثمن .. »

« من السرب السابع إلى القاعدة .. سنطلق الصواريخ فورًا .. »

« من القاعدة إلى السرب السابع .. نسمع دوى انفجارات .. هل قمتم بنسف ذلك الجسم المجهول .. »

« من السرب السابع إلى القاعدة .. كلاً .. لم ننجح فى هذا للأسف .. صواريخنا انحرفت عن الهدف لسبب مجهول ، وارتفعت إلى أعلى ، ثم انفجرت على ارتفاعات عالية جدًا ، و ... يا إلهى ؟ ما الذى يحدث ؟! »

« من القاعدة إلى السرب السابع .. ما الذى يحدث أمامكم ؟! من القاعدة إلى السرب السابع .. أجب .. أجب فورًا .. »

« من السرب السابع إلى القاعدة .. معذرة لتأخُّر الرد ، ولكن ما يحدث أمامنا مذهل بكل المقاييس .. تلك المركبة الفضائية ترتفع محطِّمة من الحفرة العميقة ، وتنطلق نحو ذلك الجسم المجهول ، كما أنه مغناطيس ضخم .. ونحن عاجزون عن بلوغه .. هناك طاقة ما تحيط به ، وتؤدى إلى انحراف أجهزتنا بعنف .. »

« من القاعدة إلى السرب السابع .. امنع ذلك الجسم المجهول من اختطاف المركبة المحطمة .. امنعه بأى ثمن .. »

« إننا نحاول .. ولكن .. »

« من القـاعدة إلـى السرب السـابع .. مـاذا يحدث عنـدك .. ما تلك الفرقعة العنيفة .. أجب أيها السرب السابع .. أجب .. »

« من السرب السـابع إلـى القـاعدة .. المركبـة المحطّمـة التصقت بالجسم الضخم ، ثم انطلق الاثنان إلى أعلى ، فـى خط مستقيم ، واختفيا بغتة ، كما لو أنهما قد اخترقا الغلاف الجوى بسرعة الضوء .. يا إلهى ! هذا مستحيل ! مستحيل تمامًا ! لـن يصدّق أحد تقريرنا .. لن يصدقه مخلوق واحد .. »

★ ★ ★

« إنهـا مخلوقـات مـن الفضـاء الخـارجى ، وليست مشـكلات هندسة وراثة .. »

ألقى (أحمد) العبارة فى غضب عصبى ، فى وجـه عريض المنكبين ، الذى تراجع بمقعده فى هدوء ، وشبك أصـابع كفيـه أمام وجهه ، قائلاً :

ـ وما الذى جعلك تؤكّد هذا ؟ إنـك لـم تبدأ حتـى فـى فحـص جثة الدكتور (حسن) !

هزّ (أحمد) رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ لست بحاجة لفحصهـا ، حتـى أصل إلـى استنتاج كهذا .. مصرع الرجل وحده يؤكّد نظريتى .

هزّ الرجل كتفيه ، قائلاً :

ـ لو أنك تقصد نظرية الانتقام ، فهى لا تشير سوى إلى أن ذلك المخلوق يحتفظ بذاكرته فى خلاياه ، كما يحتفظ بحياته فيها أيضًا .

مال (أحمد) إلى الأمام ، وقال فى حدة :

ـ خطأ .

ارتفع حاجبا الرجل فى دهشة ، فتابع (أحمد) فى عصبية :

ـ لو أنها مسألة ذاكرة ، لقتل ذلك الشىء مدير الفندق فحسب ، ولسعى للبحث عن قاتله ، أيًا كان ، ولكن ما حدث ليس كذلك علـى الإطلاق ، فعينة الدم ، التى صنعت ذلك المخلوق ، تم انتزاعها منـه ، قبل أن يلتقى بالدكتور (حسن) ، ولم يكن من الممكـن أبدًا أن تحمل ذاكرة قديمـة ، ثم إن الأمـر من المستحيل أن يكون مجرّد مصادفة ، أن يقع اختياره على الدكتور (حسن) بالذات ، من بين ستين مليون مواطن .. بل الواقع أن ذلك المخلوق يتمتّع بسمة ، لا يتمتّع بها أى كائن حى ، على وجه الأرض ، حتى الكائنات التى تصنعها هندسة الوراثة ، بكل أعاجيبهـا وتقنيتهـا .. إن ذاكرتـه لا تكمن فى أعماقه ، بل تنتقل بوسيلة ما ، لا مثيل لها على الأرض ،

من جيل إلى آخر ، حتى ولو لم يلتق الجيلان أبدًا ، أو تكون بينهما أية صلات مباشرة .. إنه كيان واحد ، حتى ولو قمت بتجزئته إلى ألف كيان .. هذا يفسِّر التقاء الأجزاء الممزَّقة ببعضها ، وإعادة تكوين الجسد ، كما حدث مع سيارة دورية الشرطة ، ويفسِّر أيضًا انتقامه من الدكتور (حسن) ، الذى لم يره قط .. عينة الدم ، التى كنا نحتفظ بها ، فى ثلاجة المعمل ، كانت ترتبط طوال الوقت بذلك الجسم ، الذى يعيد تكوينه .. ترى ما يراه ، وتشعر بما يشعر به ، وتواجه ما يواجهه .. لذا فقد أدركت ما أصابه ، ورأت من فعل به هذا .. وهى الآن تسعى للانتقام .

تطلَّع إليه عريض المنكبين طويلاً فى صمت ، ثم قال فى صرامة :

ـ عد إلى منزلك يا دكتور (أحمد) .. أنت تحتاج إلى بعض النوم والراحة .

هتف (أحمد) فى حدة :

ـ ذلك الوغد يسعى للانتقام من (صفوت) و(منى) .. إننا نحتاج إلى حماية خاصة .

مال الرجل إلى الامام ، وقال فى صرامة أكثر :

ـ عد إلى منزلك يا دكتور (أحمد) ، واترك لنا مهمة الحماية هذه .

التقت نظراتهما على نحو حاد للحظة أو يزيد ، ثم هبَّ (أحمد) من مقعده ، قائلاً :

ـ فليكن ..

ثم اندفع خارج الحجرة ، فانعقد حاجبا عريض المنكبين لحظة ، ثم التقط سمَّاعة هاتفه ، قائلاً :

ـ نعم يا سيادة المدير .. لقد رحل بالفعل .. أعلم .. نعم أعلم ما حدث فى الواحات الخارجة .. ربما لا يعنى شيئًا على الاطلاق يا سيِّدى ، ولكننا سنتتبع الخيط .. سنتتبعه حتى نهايته .

وأنهى الاتصال ، ثم نهض يتطلَّع عبر نافذة حجرة مكتبه إلى الدكتور (أحمد) ، وهو ينطلق بسيارته مغادرًا المكان ، وغمغم فى توتر :

ـ رباه ! إنه أملنا الأخير .. تُرى هل ..

ولم يتمّ سؤاله ..

لم يتمّه أبدًا ..

★ ★ ★

على الرغم من التوتر العنيف ، الذى كان يشعر به الدكتور (أحمد) ، وهو يدلف إلى منزله ، كان النعاس يداعب عينيه على نحو عجيب ..

صحيح أنه يشعر بإرهاق عنيف ، لم يشعر بمثله ، فى حياته كلها ، إلا أنه من العجيب أن يهاجمه النعاس على هذا النحو ، مع شدة توتره ..

إلا إذا ..

استعاد ذهنه مشهد كوب العصير الطازج ، الذى قدّمه له عريض المنكبين ، وأصرّ على أن يشربه كله ، وتذكر ذلك الطعم اللاذع فيه ، ثم هتف :

ـ ياللسخافة ! لقد دسّوا لى عقارًا منومًا .

كان يجرّ قدميه جرًا ، وهو يتجه إلى حجرة نومه ، وما إن ألقى جسده على فراشه ، حتى التقط سمّاعة الهاتف ، وطلب رقم (صفوت) ، ولكن رنين الجرس استمرّ طويلاً .. طويلاً جدًا ..

وبلا جواب ..

وكررّ (أحمد) الاتصال مرة ..

ومرة ..

ومرات ..

وأخيرًا شعر بالحنق والأسى ، فألقى سمّاعة الهاتف ، قائلاً ، وهو يغالب النعاس بصعوبة :

ـ رباه ! لماذا يدفعوننى للنوم عمدًا ؟! لماذا ؟!

كان عقله يحاول التفكير فى الأمر ، ولكن العقار المنوّم راح يسيطر على كيانه رويدًا رويدًا ، حتى أسبل جفنيه ، و ....

وغرق فى نوم عميق ..

وعلى الرغم من العقار المنوّم ، كان نومه مضطربًا إلى حد كبير ..

كان عقله ، حتى فى نومه يستعيد كل ما مرّ به من أحداث رهيبة ، ومشاهد بشعة ، منذ بدأ ذلك الكابوس ..

وفى عنف ، راح يتقلّب فى فراشه كالمحموم ، وأشباح عجيبة تمرّ برأسه ..

مخلوقات بشعة ..

وأسلحة رهيبة ..

كتل دموية ضخمة ، تهاجمه من كل صوب ..

ثم تلاشت كل تلك الصور فجأة ، وحلّت محلّها صورة واحدة ..

صورة .. ذلك الكائن ..

كان يقف هناك ، بالقرب من النافذة ، يتطلّع إليه بعينين دمويتين مخيفتين ، و ...

وانتفض جسد (أحمد) فى عنـف ، وهو يهبّ جالسًا على فراشه ، وهاتفًا :

ـ لا ..

كان قلبه يخفق فى عنف ، وأنفاسه تتلاحق على نحـو عجيب ، وقد حل الظلام ، وانتشر فى الحجرة كلها ، فغمغم بأنفاس لاهثة :

ـ رباه ! يا له من كابوس ! لقد خُيِّل إلى أن ...

بتر عبارته بغتة ، وسرت فى جسده قشعريرة باردة كالثلج ، وهو يحدّق فى الركن البعيد لحجرته ، فى رعب بلا حدود ..

فهناك ، فى ذلك الركن المظلم ، بين الجدار ودولاب ملابسه الكبير ، كان يقف شخص ما ..

شخص ناضج كبير ، يلتصق بالجدار ، ويتطلّع إليه مباشرة ..

وعاد قلب (أحمد) يخفق بمنتهى العنف ..

أهو مجرَّد ظلّ صنعه خياله ، أم ...

قبل أن يكتمل الخاطر فى رأسه ، عبرت سيارة الطريق ، وتسلّل ضوء مصباحيها إلى النافذة ، وانعكس بعضه على الجدار ..

وانطلقت من حلق (أحمد) شهقة ملؤها الرعب والفزع ..

لقد انعكست لمحة الضوء على زوج من الأعين ..

زوج فى لون الدم ..

إنه يقف هناك بالفعل ..

ذلك الكائن الدموى الرهيب يقف هناك ، ويتطلّع إليه مباشرة ..

متى جاء ؟!

وكيف ؟!

ولماذا يقف ساكنًا هكذا ؟!

وما إن مرَّ السؤال الأخير بذهنه ، حتى خطا ذلك الكائن الرهيب إلى الأمام ، ودخل دائرة الضوء ..

وبكل الرعب فى أعماقه ، وثب (أحمد) من فراشه ، وتراجع صائحًا .

ـ ماذا تريد منى ؟! أنا لم أقتلك .. لم أقتلك .

ولكن ذلك الكائن تقدَّم نحوه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

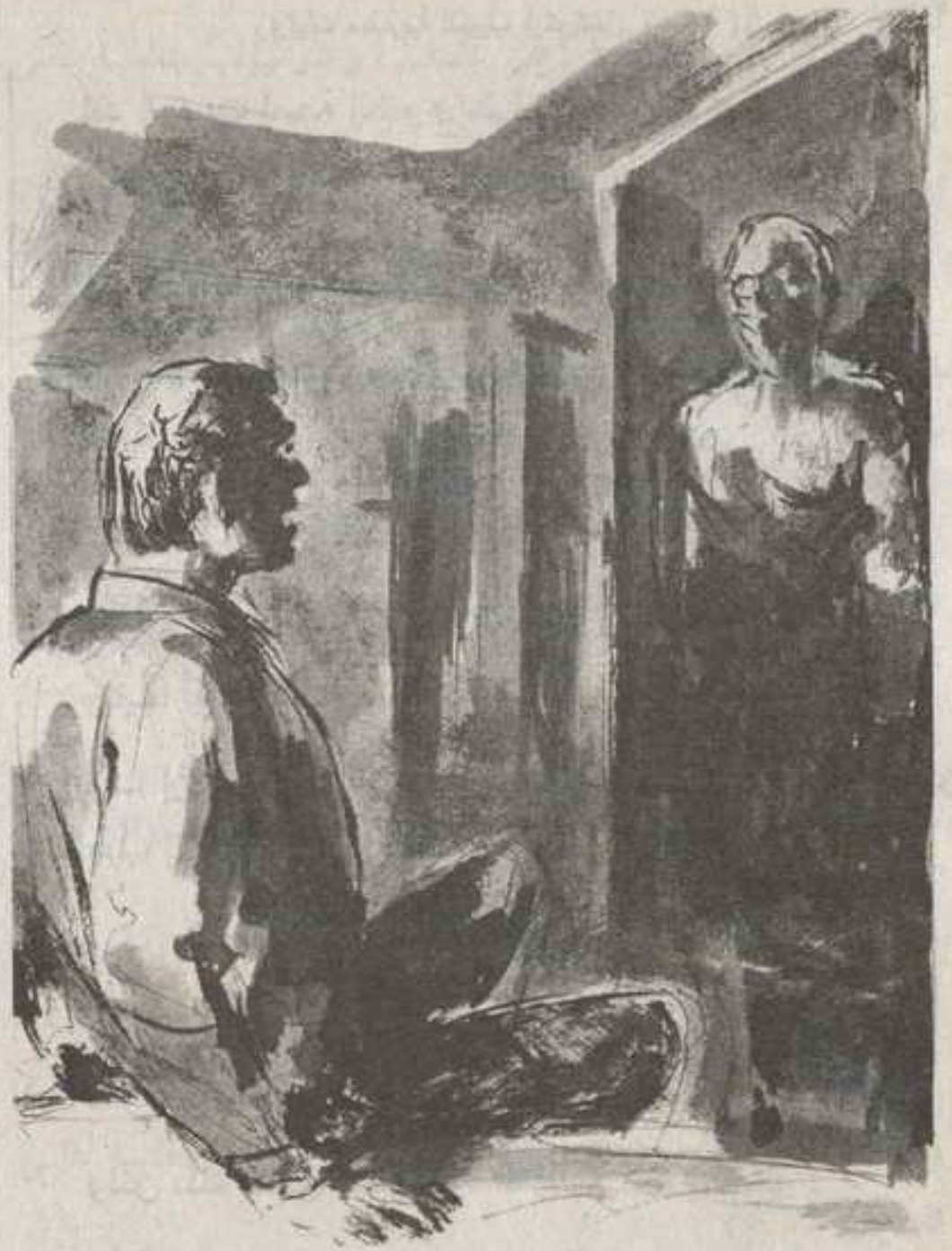

وما إن مرّ السؤال الأخير بذهنه ، حتى خطا ذلك الكائن الرهيب إلى الأمام ، ودخل دائرة الضوء .. وبكل الرعب فى أعماقه ، وثب (أحمد) من فراشة ..

كانت عيناه تلتمعان بذلك البريق الدموى ، ويداه ترتفعان نحو عنق (أحمد) ، الذى اتسعت عيناه بكل رعب الدنيا ، ووثب إلى كيانه كله سؤال واحد مخيف ..

تُرى ما الذى سينتزعه من جسده ، بعد أن يمتصّ دمه ونخاعه ..

قلبه ..

مخه ..

أم أحشاءه ..

وبكل هلعه ، راحت يداه تبحثان فيما حوله ، عن أى شىء يمكن أن يقاتل به ..

أو يقاوم به ..

أى شىء ..

وارتطمت يده بالمنبه الثقيل ، فالتقطه ، وألقاه بكل قوته نحو ذلك المخلوق ..

ولكن يد المخلوق الدموية ارتفعت فى سرعة ، والتقطت المنبه ..

ليست يده ، وإنما يداه ..

ولكن مهلاً .. إن ذراعيه مازالا يرتفعان نحو عنقه ..

واتسعت عينا (أحمد) برعب هائل ، وهو يلتصق بالجدار ، هاتفًا :

ـ لا .. مستحيل ! مستحيل ..

فالمخلوق الذى يقترب منه ، لم يكن له ذراعان فحسب ..

بل كان أشبه بالأخطبوط ..

أخطبـوط بشـرى التكوين ، تبـرز منـه سـت أذرع دفعـة واحـدة ..

ووثب قلب (أحمد) من بين ضلوعه ، وهو يصرخ :

ـ لا .. لا .. لا ..

ومع صرختـه ، انهار باب حجرتـه بغتـة ، واندفـع عـبره شخص مألوف ..

ثم تبعه آخران ..

وبصوته الصارم العصبـى ، صـاح (صفوت) ، وهو يرفـع فوهة مسدسه :

ـ وقعت أيها الوغد .. لقد أوقعنا بك أخيرًا .

استدار ذلك الكائن الاخطبوطى إلى الرجال الثلاثة ، الذين ضغط أحدهم زر الإنارة ، فغمر الضوء الحجرة ، واتسعت عيون الرجال الثلاثة فى دهشة مذعورة ، وهتف (صفوت) :

ـ رباه ! أى عبث شيطانى هذا ؟!

أزاحـه أحـد الرجلين الآخرين جانبًـا ، دون أن ينطـق كلمـة واحدة ، ورفع مسدسه ، وأطلق النـار على ذلك المخلوق ..

وانتفض (أحمد) فى عنـف ، مـع دوى الرصاصـات ، التـى اخترقت جسد ورأس الكائن ، فى مواضع شتى ..

ولكنها لم تسقطه ..

كل ما حدث هو أنه قد أطلق صوتًا رهيبًا ، لم تجد أية كلمات لوصفه ، وإن بدا وكأنه ينبع من أعمق أعماق الجحيم ، ثم اندفـع نحـو الرجـال ، وانقضـت أذرعـه السـتة عليهم ، ورأى (أحمد) (صفوت) يطير بعيدًا ، ثم يرتطم بالجدار فى عنف ، ويسقط علـى وجهـه ، وأحـد الرجلين الآخـرين يندفع نحـو النافذة ، ويخـترق زجاجها ، ليهوى من الطابق الثالث ، أما الرجل الثالث ، فقد أمسـك ذلك المخلوق رأسه بذراعين ، ثم اعتصر عنقه بكفين آخرين ..

ومع الحشرجة الرهيبة ، التى أطلقها الرجل ، هبَّ (صفوت) من سقطته ، والتقط مسدسه مرة أخرى ، صائحًا :

ـ كفى أيها الوغد .. كفى .

وانطلقت رصاصاته نحو الكائن مرة أخرى ..

وفى هذه المرة أيضًا ، اخترقت الرصاصات جسد الكائن ، دون أن تسقطه ، وإنما أثارت غضبه بشدة ، فألقى الرجل المحطَّم العنق جانبًا ، واستدار يواجه (صفوت) ، بشراسة لا مثيل لها ..

وضغط (صفوت) زناد مسدسه مرة ثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

ولكن لم تنطلق منه رصاصة واحدة ..

لقد فرغت خزانته تمامًا ، وصار عليه أن يواجه ذلك الوحش وحده ..

بلا سلاح ..

وبلا أمل ..

وبكل غضبه ، هتف (صفوت) :

ـ هيا أيها الوغد .. هيا .. أضف إلى قائمة حفاراتك اسم ضحية جديدة .. هيا ..

تقدَّم المخلوق البشع نحوى ، وراحت أذرعه الست تضرب الهواء ، فى أكثر المشاهد رعبًا ، فى حياة (أحمد) ، الذى راح يردِّد بأنفاس لاهثة :

ـ لا .. لا يمكن أن تكون هذه هى النهاية .. لا ..

مع آخر حروف كلماته ، سطعت الحجرة كلها بضوء أزرق قوى ، جعل ذلك المخلوق يطلق صرخة رهيبة أخرى ، ثم يستدير بكل سرعته إلى النافذة ..

واتسعت عينا (أحمد) و (صفوت) عن آخرهما ، مع مرأى ذلك الطيف الداكن ، الذى عبر النافذة ، وسط شلال الضوء الأزرق ، ثم تكوَّن فى سرعة ، فى هيئة بشرية كاملة ..

(أحمد) رآه طويلاً حاد الملامح ..

و (صفوت) شاهده ضخمًا مفتول العضلات ..

والرجل الذى اقتحم الحجرة ، فى اللحظة نفسها ، رآه وسيمًا عريض المنكبين ..

ومن المؤكَّد أن ذلك الكائن الدموى قد رآه بشكل مختلف تمامًا ، فقد تراجع فى ذعر ، وراح يضرب أذرعه فى الهواء ، ويصدر صوتًا عجيبًا عميقًا ، كما لو أنه يأتى من أعماق قبر رطب ..

وفى هدوء ، رفع ذلك الشكل البشرى يده ، وهى تحمل دائرة كبيرة ..

وأطلق الكائن صرخة أخرى ..

ثم انطلق من الدائرة شىء أشبه بقوس من الضوء ..

قوس اتجه مباشرة نحو ذلك الكائن الدموى ، ثم أحاط به ، على هيئة دائرة كبيرة ، انطلق منها قوسان ، من أعلى وأسفل ، ليصنعا منها كرة من الضوء ، احتوت ذلك الكائن داخلها ، ثم راحت تتقلّص ، وتتقلّص ..

وبسرعة مدهشة ..

وضرب الكائن الهواء بذراعيه مرتين ، ثم راح يضرب جدران الضوء فى يأس ، سُرعان ما تحوّل إلى ما يشبه البكاء ، وهو ينكمش ، ويفقد كل تفاصيله ، ليتحوّل إلى كتلة ..

مجرّد كتلة دموية ، لها ستة أذرع أخطبوطية صغيرة ، أصبحت سجينة داخل كرة الضوء ، التى تحوّلت فى سرعة إلى كرة من البلّور ..

وأمام العيون الذاهلة ، والأفواه المفغورة ، والأطراف المتجمّدة ، انحنى الطيف البشرى يلتقط الكرة البلّورية ، ثم تراجع نحو

النافذة ، وانطلق عبرها ، ليمتزج بالضوء الأزرق ، ثم يختفى كل شىء دفعة واحدة ..

وفى نفس لحظة اختفائه ، اندفع الضخم إلى الحجرة ، هاتفًا :

ـ أين هو ؟!

كان زميله ذاهلاً مبهوتًا ، فلوّح (صفوت) بيده ، قائلاً بصوت مبحوح ، من فرط الانفعال :

ـ لقد ذهب .

غمغم الضخم مبهورًا :

ـ ذهب ؟!

أومأ (صفوت) برأسه ، مغمغمًا :

ـ إلى الأبد ..

قالها ، وتطلّع الكل فى صمت وانبهار إلى النافذة المحطّمة ، التى اختفى خارجها الطيف والضوء الأزرق ، وذلك المخلوق الدموى ، وكل منهم يطرح على نفسه سؤالاً واحدًا ..

تُرى هل انتهى الأمر حقًا ؟!

هل ؟!

★ ★ ★

« أعتقد أن كل شىء قد انتهى بسلام .. »

نطق عريض المنكبين العبارة ، فى هدوء وارتياح ، وهو يجلس خلف مكتبه ، الذى غمره ضوء الشمس ، من النافذة المفتوحة ، فسأله (صفوت) فى توتر :

ـ أأنت واثق ؟!

أومأ عريض المنكبين برأسه إيجابًا ، وهو يقول بابتسامة رصينة :

ـ اطمئن .

زفر (صفوت) ، مغمغمًا :

ـ إننى أحاول ، ولكن عقلى أصبح منشغلاً بالفضاء ، والكواكب ، ومخلوقات العوالم الأخرى ..

ثم نهض من مقعده ، مستطردًا فى شىء من العصبية :

ـ ولكن ما فعلتموه مع الدكتور (أحمد) ما زال لا يروق لى أبدًا .

سأله الطويل فى هدوء :

ـ وما الذى فعلناه ؟!

أجاب فى حدة :

ـ لقد دسستم له عقارًا منومًا ، وأنتم تعلمون أن ذلك الشىء سيسعى إليه حتمًا .

قال الضخم فى برود :

ـ لو لم نفعل هذا ، لكنا ما زلنا نحصد الضحايا ، حتى هذه اللحظة ..

هتف محنقًا :

ـ ولماذا العقار المنوّم ؟!

ابتسم عريض المنكبين ، وقال :

ـ لقد كان يحتاج إلى النوم بالفعل .

هزّ (صفوت) رأسه فى قوة ، وقال :

ـ ما زلت أشعر بالضيق .

تبادل الرجال الثلاثة نظرة صامتة ، قبل أن يقول عريض المنكبين بابتسامة كبيرة :

ـ اطمئن .. لن يمضى وقت طويل ، حتى تعتاد مثل هذه الأمور .

قال (صفوت) فى دهشة :

ـ أعتادها ، ولماذا ؟!

أجابه الرجل ، وهو يميل نحوه ، ويناوله ورقة مطوية :

ـ لأن هذا هو أسلوبنا فى العمل .

فتح (صفوت) الورقة ، وحدّق فيها ذاهلاً ، فى حين ابتسم الرجال الثلاثة ، والطويل يقول :

ـ مرحبًا بك يا رجل ، فى صفوف المخابرات العامة المصرية .

وكانت مفاجأة جديدة ..

ولكن ، ولأوّل مرة ، منذ فترة طويلة ، لم تكن مفاجأة مخيفة ..

على الإطلاق ..

★ ★ ★

منتصف الليل ، كما تعلن دقات الساعة ، فى مشرحة (زينهم) ، والدكتور (أحمد) يرتدى معطفه الطبى ، وقفازيه ، ويفحص جثة جديدة ، فى اهتمام بالغ .

كانت هذه هى وسيلته الوحيدة لنسيان ما حدث ..

الانغماس فى العمل ..

حتى النخاع ..

وعند طرف منضدة البحث ، كانت هناك قارورة صغيرة ، تمتلىء ببقايا عينة دموية ..

ولكنه لم ينتبه إلى وجودها ..

ودون أن يدرى ، ارتطمت يده بها ..

وسقطت القارورة ..

وتحطّمت على أرضية القاعة ..

وفى ذعر ، التفت إليها (أحمد) ، وحدّق فيها ، و ...

وانتفض جسده كله فى عنف ..

لقد تكوّرت بقعة الدم ، التى سقطت من القارورة المحطّمة ، وراحت تنمو فى سرعة ، وتتحوّل إلى كتلة دموية ، فقفز من مقعده ، وتراجع حتى التصق بالجدار ، وهو يهتف :

ـ لا .. ليس ثانية .. ليس ثانية .

ومع هتافه ، نمت فجأة أذرع اخطبوطية من الكتلة الدموية ..

ثم وثبت كلها نحو وجهه ، و ...

« لا .. » ..

انطلقت الصرخة من حلقه ، وهو يهبّ جالسًا على فراشه ، وراح قلبه يخفق فى عنف شديد ، وهو يلهث بشدة ، وأسرع يضىء المصباح المجاور للفراش ويدير عينيه فى الحجرة التى استبدل بأثاثها كله أثاثًا آخر جديدًا ، وكأنما يتأكد من أن كل هذا لم يكن سوى كابوس ..

وبأطراف مرتجفة ، نهض يجلس على طرف فراشه ، وارتشف رشفة ماء ، وهو يهزّ رأسه ، واثقًا من أنه سيمضى وقتًا طويلاً جدًا ، قبل أن ينسى كل ما مرّ به ..

وحتى يطرح عن نفسه ذلك السؤال ، الذى يؤرق مضجعه ، ويطارده صباحًا ومساءً ، ويحرمه الراحة والهدوء دائمًا ..

تُرى هل انتهى الكابوس بالفعل ، أم أنه ما زالت هناك قطرات من دم ذلك المخلوق ، فى مكان ما ، تنتظر الفرصة المناسبة لتنمو ..

وتنمو ..

وتنمو ..

الآن فقط أدرك لماذا أخفت الدولة ما حدث عن المواطنين ..

ولماذا تخفى كل الدول الحوادث والأمور الخارقة ، ولا تعترف بوجودها رسميًا قط ..

فالرعب الذى يملأ كيانه ، منذ أدرك ما يمكن أن يحويه الكون ، وما يمكن أن يأتى به الفضاء ، قد استقرّ فى أعمق أعماق وجدانه ، وجعله يرتجف فى كل ثانية ، خشية أن تتكرّر تلك التجربة الرهيبة مرة أخرى ..

ولهذا يدرك أن السؤال لن يفارق رأسه ، مهما تبقى له من العمر ..

بل ولن يفارق كيانه كله ..

إلى الأبد .

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

فى هذا الكتاب

صفحة

سنة واحدة (قصة قصيرة) ٥

رجل المدالة :

الخائن (قصة كاملة) ١٧

اختلاف (قصة قصيرة) ٥٠

مذكرات طبيب - فى صعيد مصر الجوانى

الحلقة الرابعة ٥٩

قصة العدد :

(الـدم) ٨٧

عزيزى القارئ (١) ٢٤٢

عزيزى القارئ (٢) (خاص جدا) ٢٥٩

الثمن فى مصر ٣٠٠ مـ
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

مطابع مطابع التقدم